سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ
بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن
قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ
عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ
ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ
مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ
إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ
رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ
إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ
إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾

سورة المائدة مدنيّة وآياتها مائتا آية، وقد جاء في فضلها بعض الأحاديث، ومن ذلك ما ورد أن البقرة وآل عمران سُمِّيتا بالزهراوين، وأنهما يكونان يوم القيامة غمامتين يظللان فوق رأس من يحفظهما(١).

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يخبر جلّ وعلا أنه هو الله الذي لا معبود بحق إلا هو، الحي الذي له الحياة الكاملة الدائمة، القائم بنفسه علىٰ شئون الخلق وتدبير الكون.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الاسم الأعظم فذكر أنه في آية الكرسي ومقدمة سورة آل عمران وسورة طه(٢)، وبناءً علىٰ هذا قال الأكثرون: إنه ﴿ٱللَّهُ﴾، وقال آخرون: هو ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، والعلم عند الله. وقد أخفاه جلّ وعلا لحكم، منها: أن أسماءه كلها عظمىٰ، والأرجح: أن الاسم الأعظم لا يخرج عن هذين القولين.

[٣] واعلم يا نبي الله أن الله جل في علاه نزَّل عليك القرآن بالحكمة التي اقتضتها إرادته، وبالعدل والصدق في أحكامه، ومؤيدًا ومصدقًا للكتب السماوية التي قبله، وأنه أنزل التوراة علىٰ موسىٰ، والإنجيل علىٰ عيسىٰ عليهما السلام.

[٤] ثم بين جل وعلا أنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن؛ لأجل هداية الناس جميعًا، ثم أنزل ما يفرق بين الحق والباطل وهو القرآن الكريم، ثم ذكر سبحانه أن الذين جحدوا آيات الله البينة الواضحة لهم عذاب شديد دائم في نار جهنم، والله عزيز لا غالب له، ينتقم ممن خالفه وأعرض عن دينه.

[٥] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنه عالم الخفيات، ومطلع علىٰ المغيبات، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماوات، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

[٦] ثم أخبر جل وعلا أنه وحده الذي يخلقكم في بطون أمهاتكم كما يشاء، من اللون والجنس والشكل، فلا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، العزيز الذي لا غالب له، الحكيم في خلقه وأمره وشرعه.

[٧] واعلم يا نبي الله أن الله جل في علاه أنزل عليك القرآن منه آيات قطعية الدلالة واضحة المراد منها لا اشتباه فيها، وهي جُلُّ ما في القرآن، وهي التي تحتوي علىٰ التكاليف الشرعية وأخبار الأمم الماضية والخلق والبعث، كما قال تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود:١].

وأما الآيات الأُخَرُ المتشابهة فهي أقل ما في القرآن، وهي تحتملُ عدة تفاسير يفهمها الراسخون في العلم، ومنها: أمر الحياة البرزخية، وجُلُّ أمور الغيب، ومنها كيفية الذات الإلهية، ثم بين سبحانه أن الذين في قلوبهم مرض يتعلقون بالآيات المتشابهة ليشككوا بها المؤمنين، ويؤيدوا باطلهم الذي هم عليه، ويثيروا الفتنة بين الناس، ولا يعلم تأويل الآيات المتشابهات علىٰ القطع إلا الله وحده، وأن الراسخين في العلم يؤمنون بهذه الآيات المتشابهات كما يؤمنون بالآيات المحكمات، وأنها كلها من كلام الله المنزل علىٰ نبيه ﷺ، ولكن لا يفهم ولا يتدبر هذه المعاني علىٰ وجهها الصحيح إلا أصحاب العقول السلمية الرزينة، والعقائد السليمة.

[٨] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن المؤمنين الصادقين في إيمانهم يسألون ربهم الثبات، فيقولون: ربنا لا تصرف قلوبنا عن الهدىٰ بعد أن هديتنا إلىٰ الحق، وامنحنا من عندك رحمة ترحمنا بها في دنيانا وآخرتنا، إنك كثير الفضل والعطاء، تعطي من تشاء بغير حساب، فلا إله غيرك، ولا رب لنا سواك.

[٩] ثم أخبر سبحانه أنهم يقولون أيضًا: والله يا ربنا إننا نؤمن بيوم القيامة الذي هو يوم الجزاء والحساب، وإننا نشهد أنك جامع الناس في ذلك اليوم الذي لا شك فيه، وإنك سبحانك لا تخلف الميعاد.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٥٦)، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ
فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟
سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾
قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ
ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ
مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ
وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ
مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ
أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ
جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ
مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

[١٠] يخبر جلّ وعلا أن الذين جحدوا دين الله وأنكروه لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله وغضبه؛ بل ستكون حسرة عليهم؛ سواء في الدنيا أو في الآخرة، وسوف يكونون حطبًا تشتعل بهم نار جهنم؛ فبئست النهاية وبئس المصير.

[١١] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن أولئك الكفار الذين جحدوا آياته مصيرهم مصير آل فرعون، والذين كفروا من قبلهم؛ فكلهم جحد الآيات الواضحات البينات؛ فعاقبهم الله وأهلكهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم من الكفر والتكذيب والعناد وغير ذلك، واعلموا أن، عذاب الآخرة أكبر، وأن الله شديد العقاب لمن جحد دينه وكفر به.

[١٢] وقل يانبي لهؤلاء الكفار والمشركين: إنكم أيها الكفار ستهزمون في هذه الدنيا، ويوم القيامة ستجمعون ثم تساقون إلىٰ جهنم، فبئس الفراش فراشهم الذي سيفترشونه وهو نار جهنم.

[١٣] واعلموا أيها اليهود أنه قد كان لكم عبرة وعلامة ودلالة عظيمة في ما وقع بين جماعتين التقتا في معركة بدر، جماعة تقاتل من أجل إعلاء كلمة الله وهم الرسول ﷺ وصحابته الكرام، وجماعة تقاتل مع الشيطان دفاعًا عن الباطل وهم المشركون، ولقد كان المؤمنون يرون الكفار أكثر منهم في العدد والعدة؛ حيث كانوا يرونهم أكثر منهم مرتين، رؤية حقيقية، ومع ذلك لم يهابوا من عدوهم ولم يجبُنوا عند اللقاء، ولكن الله بقدرته أيد المؤمنين ونصرهم، وهزم الكافرين وأذلهم، والله يؤيد بنصره من يشاء من عباده؛ واعلموا أن في هذه الحادثة لعبرة وعظة لأصحاب العقول والبصائر المتفكرة الموقنة بأن النصر من الله يهبه لأوليائه الصالحين.

[١٤] ثم ذكر جلّ وعلا حال الناس في إيثار الدنيا علىٰ الآخرة؛ فأخبر أن الناس حُبِّبت لهم الشهوات من النساء والبنين، والأموال الكثيرة المخزنة من الذهب والفضة، والخيل المعلمة بأحسن الألوان وأبهجها، والأنعام من الإبل والبقر والغنم، والأرض المزروعة بالخضرة والنباتات المثمرة، وهذه كلها من متاع الحياة الدنيا وزينتها، ولكن الله عنده المرجع الحسن والنزل الكريم لعباده المؤمنين، وهي جنة عرضها كعرض السماوات والأرض؛ فيها كل ما تشتهيه الأنفس.

[١٥] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للناس: ألا أخبركم أيها الناس بأحسن وأفضل مما زُيِّن لكم في الحياة الدنيا من الشهوات، وهو ما أعطاه الله للمؤمنين الذين يخشونه ويخافون عقابه من جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها وبساتينها الأنهار؛ خالدين فيها خلودًا لا يلحقه موت، ولهم أيضًا أزواج طاهرات من كل دنس، ومن كل طمث، ومن كل سوء خلق، وأعظم من ذلك أن يحل عليهم رضوان الله، واعلموا أن الله بصير بعباده يعلم الصادق من المنافق، وسيجازي كلًّا بحسب إيمانه وعمله.

ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ
أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا
بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ
عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ
فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ
وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۧنَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ
ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ
أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

[١٦] واعلموا أيها الناس أن هؤلاء المتقين الذي ذكروا في الآية السابقة من صفاتهم أنهم يدعون ربهم فيقولون: ياربنا إننا آمنا بك، وصدقنا بكتابك، واتبعنا نبيك محمدًا ﷺ، فندعوك أن تتجاوز عن زلاتنا وأخطائنا، ونَجِّنا برحمتك من عذاب النار.

[١٧] ثم بين سبحانه أن من صفاتهم: أنهم صابرون علىٰ البأساء والضراء بكل أنواع الصبر؛ وأنهم صادقون في أقوالهم وسائر أحوالهم، وأنهم مطيعون لله دائمًا، وأنهم ينفقون سرًّا وعلانية، وأنهم يستغفرون ربهم في آخر الليل وقت نوم الناس وراحتهم؛ لأنه وقتُ تنزُّلِ الربِّ ومَظِنَّةُ إجابة الدعاء.

[١٨] ثم أخبر جلّ وعلا عباده بالأدلة والآيات والبراهين القاطعة التي تشهد بوحدانيته، وقد شهد لنفسه أنه الواحد الأحد الفرد الصمد، وأنه المتفرد بالألوهية، وشهد بذلك الملائكة وأهل العلم، وأنه سبحانه قائم بالعدل بين عباده فيما يقسم من الآجال والأرزاق، وأنه لا معبود بحق سواه، وهو العزيز الذي لا يغالبه أحد في ملكه، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها المناسبة.

[١٩] واعلموا أيها الناس أن الدين الحق الذي ارتضاه الله لخلقه وأرسل به الرسل هو دين الإسلام الذي يجمع الإيمان والقول والعمل، وهو الدين الخاتم لجميع الأديان، وما اختلف اليهود والنصارىٰ في أمر الإسلام ونبوة محمد ﷺ إلا بعد أن عرفوا الحقيقة، وعلموا أن محمدًا ﷺ هو الرسول المذكور عندهم في كتبهم، وما حملهم علىٰ هذا الاختلاف إلا اتباع الهوىٰ والبغي والحسد للمؤمنين، ومن يكذب بآيات الله فإن الله سريع الحساب، لا يشغله أمر عن أمر، وسيجازي كلًّا بحسب عمله.

[٢٠] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ إذا جادله أهل الكتاب في أمر الدين والرسالة أن يقول لهم: لقد أخلصت ديني لله وحده لا شريك له، وكذلك كل من اتبعني من المؤمنين فقد أخلصوا دينهم لله وحده لا شريك له، ثم أمره أن يقول لليهود والنصارىٰ والمشركين: هل أسلمتم؟ فإذا أسلموا فقد أصابوا الحق، وإن أعرضوا وعاندوا؛ فليس عليك يانبي الله إلا البلاغ المبين، وقد بلغ ﷺ أمته، وأدىٰ الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، واعلموا أيها الناس أن الله بصير بالعباد، عالم بجميع أعمالهم، لا تخفىٰ عليه خافية من أمرهم.

[٢١] واعلموا أيها الناس أن الذين يجحدون آيات الله الواضحة البينة، ويقتلون الأنبياء بغير حقٍّ، ويقتلون الذين يأمرونهم بالعدل من أتباع الأنبياء؛ فهؤلاء شر الخلق فبشِّرهم بعذاب أليم في نار جهنم.

[٢٢] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن هذا العذاب الأليم الذي استحقوه، لأن أعمالهم بطلت في الدنيا والآخرة بسبب كفرهم وجحودهم، وليس لهم من ينصرهم ويدفع عنهم شيئًا من عذاب الله.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ
اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ
وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ
لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن
تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن
تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ
فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾
لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ
وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ
تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ
إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

[٢٣] يقول جل وعلا لنبيه ﷺ: ألا تعجب يانبي الله من حال هؤلاء اليهود الذين آتيناهم حظًّا وافرًا من الخير وهو التوراة، وعرفوا ما فيها من أحكام، وعلموا أن ما جئت به الحق؛ فإذا دُعُوا للتحاكم إلىٰ القرآن ليفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، فإن فريقًا منهم يتولون بأبدانهم ويعرضون بقلوبهم، لأن حكم الله لم يوافق أهواءهم؛ ولأن من عادتهم الإعراضَ عن الحق واتباعَ الهوىٰ؛ مع أن حكم القرآن موافق لما عندهم في التوراة.

وفي هذا تحذير لنا أن نفعل فعل هؤلاء اليهود ونحذو حذوهم؛ فنعرض عن حكم القرآن؛ فيصيبنا ما أصابهم من الذم والعقاب، ولهذا الواجب علىٰ كل من دعي إلىٰ كتاب الله وسنة نبيه ﷺ السمع والطاعة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٥١].

[٢٤] ثم بين جل وعلا أن إعراض هؤلاء اليهود عن حكم الله هو بسبب ما سولته لهم أنفسهم وشياطينهم بأنهم لن تمسهم النار إلا الأيام التي عبدوا فيها العجل، وهي أربعون يومًا، واغتروا بما كانوا يقولون ويفترون: بأن دخولهم النار فقط تَحِلَّةً للقسم، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١]، واغتروا أيضًا بأن أنبياءهم سيشفعون لهم، وقالوا: إن الله وعد يعقوب ألا يعذب أولاده إلا تَحِلَّةَ القسم، وقالوا: إنهم أبناء الله وأحباؤه، إلىٰ آخر افتراءاتهم التي تكررت حتىٰ تقررت في نفوسهم واعتقدوها.

[٢٥] وهؤلاء اليهود الذين اغتروا بهذه الأماني والافتراءات كيف سيكون حالهم إذا أحضرناهم للحساب يوم القيامة الذي لا شك ولا ريب في وقوعه، وقد أخذ كل واحد منهم جزاءه مما كسب من الخير أو الشر، بلا ظلم أو اعتداء عليه.

[٢٦] ثم أمر سبحانه وتعالىٰ نبيه ﷺ أن يعظم ربه في دعائه فيقول: اللهم يامن بيده الملك ومقادير الأمور، أنت الذي تعطي الملك من تشاء من عبادك، وتنزعه ممن تشاء، وتعز الذليل متىٰ تشاء، وتذل العزيز متىٰ تشاء، بيدك الخير، إنك وحدك سبحانك القادر علىٰ النفع والضر، لا يعجزك شيء في الأرض ولا في السماء.

[٢٧] ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن مما يدل علىٰ عظيم قدرته أنه يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، فيطول هذا ويقصر ذاك، ويخرج الحي من الميت كإخراج النبات من الحبة، ويخرج الميت من الحي كإخراج البيضة من الدجاجة، ويرزق من يشاء من عباده بغير حساب.

[٢٨] ثم حذر جلّ وعلا المؤمنين أن يتخذوا الكافرين الجاحدين أعوانًا وأنصارًا يبادلونهم المحبة والمودة والمناصرة، ومن يفعل ذلك فإن الله بريء منه، أما إذا كنتم ضعفاء وتخشون الضرر منهم فقد رخَّص الله لكم أن تظهروا الكلام اللين والخطاب الجميل، دون أن يؤثر ذلك علىٰ قلوبكم لتتقوا شرهم وأذيتهم، واعلموا أن الله يخوفكم من عقابه وانتقامه الشديد، وأنه إليه وحده الرجوع، وسيجازي جميع الخلائق علىٰ أعمالهم ؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

[٢٩] ثم أمر جل في علاه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين علىٰ سبيل النصح والإرشاد والتحذير: اعلموا يامن تكتموا موالاة الكفار ونصرتهم في قلوبكم، أو تظهروها؛ فإن الله يعلم ذلك ولا تخفىٰ عليه خافية؛ بل إن علمه جل في علاه محيط بكل ما في السماوات والأرض، وإنه ذو قدرة نافذة علىٰ كل شيء، ومن ذلك قدرته علىٰ عقوبتكم إذا توليتم هؤلاء الكفار.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ
نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ
فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾
فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

[٣٠] واعلموا أيها الناس أن الجزاء الحقيقي يكون يوم القيامة، يوم تجد كل نفس في ذلك اليوم كل ما فعلته في دنياها من خير أو شر، وأنه ينتظرها، فتتمنىٰ حينها النفوس الفاسقة لو أن بينها وبين هذا العمل ما بين السماء والأرض، ويحذركم الله نفسه فخافوه واتقوه، ومع شدة عقابه وعذابه فإنه رؤوف رحيم بعباده المؤمنين.

[٣١] ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول للكفار والمشركين: إن كنتم أيها الكفار صادقين في ادعائكم محبة الله فيجب عليكم أن تتبعوني وتؤمنوا بي ظاهرًا وباطنًا؛ لأني رسول الله، واعلموا أن من اتبعني فإن الله سوف يحبه ويمحو ذنوبه ويعفو عنه، والله كثير المغفرة رحيم بعباده.

قيل: نزلت هذه الآية لما قال كعب بن الأشرف زعيم اليهود وأتباعه: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة:١٨]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فهي عامة لكل من أراد حب الله فعليه اتباع ما أمر به النبي ﷺ، وترك ما نهىٰ عنه.

[٣٢] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يأمر الناس فيقول لهم: أيها الناس أطيعوا الله بطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وأطيعوا الرسول باتباع سنته وطريقته، فإنْ كذَّبتم وأعرضتم؛ فاعلموا أن الله لا يحب الكافرين الجاحدين.

[٣٣] واعلموا أيها الناس أن الله اختار لرسالته صفوة خلقه، ومن هؤلاء الذين اختارهم الله: آدم ونوحٌ وإبراهيم وآل إبراهيم وآل عمران، عليهم السلام أجمعون، ثم اصطفىٰ كل واحد منهم وأتباعه علىٰ عالمي زمانهم.

[٣٤] واعلموا أيها الناس أن هؤلاء الأنبياء وأتباعهم كلهم سُلالة واحدة بعضهم من بعض، لا تختلف عقائدهم، ودينهم واحد، واعلموا أن الله سميع لأقوال عباده، عليم بأحوالهم وأفعالهم.

[٣٥] واذكر يا نبي الله لقومك يوم أن قالت امرأة عمران: يا رب إني نذرت لك ما في بطني خالصًا لك لخدمة بيت المقدس، فتقبل يا رب مني هذا العمل، إنك تسمع كلامي، وتعلم صدقي وإخلاصي.

[٣٦] فلما أكملت امرأة عمران حملها ووضعت مولودها، وإذ به يخرج أنثىٰ، فقالت: يا رب إني وضعتها أنثىٰ، - ولا شك أن الله يعلم بما وضعت قبل أن تضع -، وأنت تعلم يا رب أن الأنثىٰ لا تصلح في خدمة بيت المقدس كالذكر، وإني سميتها يا رب مريم، وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان المطرود من رحمتك. وكان من فضل الله أن استجاب لدعائها فحفظ مريم وابنها عيسىٰ عليهما السلام ولم يقربهم الشيطان أبدًا.

وقوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾، قالت ذلك ندمًا وأسفًا علىٰ أنها لم تضع ولدًا ذكرًا يجعلها تفي بنذرها، ولله الحكمة البالغة؛ فهي لا تدري أنها وضعت سيدة نساء عالم زمانها؛ بل هي الأولىٰ من النساء الأربع اللّاتي كملن، كما قال ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «**كمُل من النساء أربع وهن: مريم، وآسية زوجة فرعون، وخديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وفاطمة الزهراء**»(١)، ولم يخطر ببالها أن ابنتها مريم سوف تضع آية عظمىٰ، ونبيًّا كريمًا، وهو عيسىٰ عليه السلام.

[٣٧] ثم أخبر سبحانه أنه استجاب لأم مريم دعاءَها، وتقبل منها نذرها؛ فحفظ لها ابنتها وتولاها وأنبتها نباتًا حسنًا، ثم إن زكريا زوج خالتها عليه السلام كفلها؛ وكان كلما دخل عليها المحراب، وهو مكان الصلاة التي تصلي فيه؛ وجد عندها أكلًا لم يقم بإحضاره لها من قبل؛ فسألها: من أين لك يا مريم هذا؟ فأجابته قائلة: هو رزق جاء من عند الله؛ فإنه سبحانه وتعالىٰ يرزق من يشاء من عبادة بغير حساب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١)، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً
طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ
يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ
كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ
قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر
رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ
عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى
وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ
وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ
وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾

[٣٨] فلما سمع زكريا إجابة مريم عليهما السلام، ورأىٰ ما تفضل الله به عليها من الخير والكرم، انتبه إلىٰ أمر كان غائبًا عنه أو مُسْتَبعِدًا لحصوله وهو الولد الصالح؛ حيث إن امرأته عاقر، وقد بلغ سن الشيخوخة؛ فما كان منه عليه السلام إلا أن توجَّه عليه السلام إلىٰ ربه فيدعاه أن يرزقه الذرية الصالحة الطيبة فقال: يا رب امنحني من فيض جودك وكرمك ذرية صالحة طيبة تقر بها عيني، وتكون خلفًا من بعدي، إنك يا رب سميع مجيب لمن دعاك.

وكان سبب دعائه أنه خاف علىٰ الدعوة والتوحيد أن يتلاعب بهما الخلف، كما وضح هو ذلك بقوله في سورة أخرىٰ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥].

[٣٩] ثم أخبر سبحانه أنه استجاب دعوة زكريا عليه السلام، وجاءت الملائكة تبشره بالولد، وهو قائم يصلي في المحراب، وقالت له: يا زكريا إن الله يبشرك بولد اسمه يحيىٰ، وهذا الولد سوف يصدِّق بعيسىٰ بن مريم عليه السلام، وسيكون سيدًا في قومه، ولا يقع في الذنوب والشهوات، ولا يقرب النساء لتفرغه للعبادة، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَحَصُورًا﴾، أي: خَلَّص نفسه للدعوة والعبادة، وسوف يكون نبيًّا من الصالحين الذين بلغوا أعلىٰ درجات الصلاح.

ولاحظ أن الله سبحانه وتعالىٰ ذكر في هذه الآيات المحراب مرتين:

الأولىٰ: لما رأىٰ الرزق عند مريم عليها السلام.

والثانية: لما نادت الملائكة زكريا وهو يصلي في المحراب وبشرته بيحيىٰ عليهما السلام.

كما أنه ذكر المحراب أيضًا في آية سابقة لما خرج زكريا عليه السلام علىٰ قومه.

ويفهم من هذا: أن رحمات الله تتنزل غالبًا علىٰ الذين يتوجهون إلىٰ الله مخلصين بالعبادة والدعاء له في الصلاة، ولذلك كان ﷺ كلما حزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة[1].

[٤٠] عند ذلك قال زكريا عليه السلام علىٰ سبيل التعجب: رب كيف يكون لي غلام مع أني قد كبر سني وامرأتي عقيم؟ فقال الله سبحانه وتعالىٰ: اعلم يا زكريا أنه بمثل هذا الفعل فإنا نفعل ما نشاء من الأفعال المعجزة المخالفة للعادة.

[٤١] وبعد أن بشَّرتِ الملائكة زكريا عليه السلام بالولد، توجه داعيًا الله أن يجعل له علامة تخبره أن زوجته حملت، وقصده بذلك أن يصوم ويدعو شاكرًا الله؛ فأخبره جلّ وعلا أنه سوف يصبح عاجزًا عن الكلام مع الناس لمدة ثلاثة أيام إلا بالإشارة إليهم، ثم أمره الله أن يكثر في هذه المدة من ذكره في أول النهار وفي آخره.

[٤٢] ثم وجه جل في علاه الخطاب لنبيه ﷺ وأخبره أن الملائكة قالت لمريم عليها السلام: يا مريم إن الله اصْطَفَاكِ وطَهَّرَكِ من الوقوع في الأخطاء، واصْطَفَاكِ من بين نساء العالمين.

وكرر سبحانه الاصطفاء في هذه الآية للأمر الخارق للعادة، وهو إيجاد الولد من غير أب.

[٤٣] ثم أمر جل وعلا مريم عليها السلام أن تخلص العبادة لله وحده لا شريك له، وأن تكثر من السجود والركوع مع الراكعين، شكرًا لله علىٰ نعمه وأفضاله.

[٤٤] واعلم يا نبي الله أن ما قصَّه الله عليك من هذه الأخبار الغيبية، هو من الغيب الذي أوحاه الله إليك، وما كنت تعلمها لولا أن الله أخبرك بها، وما كنت حاضرًا معهم وهم يقترعون بالسهام لِيُعْلَمَ بالقرعة من يكفل مريم، وما كنت معهم وهم يختصمون في نيل هذا الشرف العظيم، وإنما جاءك العلم بهذه الأخبار من عند الله؛ لتكون دليلًا لك علىٰ صدق نبوتك.

[٤٥] واذكر يا نبي الله يوم أن قالت الملائكة لمريم عليها السلام: يا مريم إن الله يبشرك أنه وهب لك ولدًا يحصل بكلمة الله تعالىٰ، وهذا المولود اسمه: المسيح عيسىٰ بن مريم عليه السلام، وسوف يكون ذا جاه وشرف في الدنيا وفي الآخرة، ومن المقربين لله تعالىٰ فصار من أولي العزم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (١٣١٩) عن حذيفة رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١١٩٢)، وصحيح الجامع (٤٧٠٣).

وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ
ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ
﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ
﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ
فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ * فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ
ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ
أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ۖ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

[٤٦] ثم أخبر جل وعلا أن هذا المولود وهو عيسىٰ عليه السلام سوف يُجري الله علىٰ يديه بعض المعجزات، ومن ذلك: أنه يكلم الناس وهو في مهده وقت رضاعه، كما يكلمهم في كبره، وسوف يكون من الصالحين الذين يعملون الأعمال الصالحة؛ بل إنه صار أحد أولي العزم من الرسل.

[٤٧] فقالت مريم عليها السلام علىٰ سبيل التعجب: يا رب كيف يكون لي ولد ولم يمسَّني بشرٌ بجماع؟ فأجابها جبريل عليه السلام: هكذا أمر الله يا مريم؛ سوف يَخْلُق منك ولدًا من غير أب، وهو جل في علاه يخلق ما يشاء، وإذا حكم بوجود شيء فإنما يقول له: (كن) فيكون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

[٤٨] ثم أخبر جل وعلا أنه سوف يعلِّم عيسىٰ عليه السلام الكتابة والحكمة، وهي وضع الأشياء في مواضعها المناسبة، وهي هنا النبوة، ويعلمه أيضًا التوراة التي نزلت علىٰ موسىٰ عليه السلام، والإنجيل الذي أنزله الله عليه.

[٤٩] وأخبر جل وعلا أنه جعل عيسىٰ عليه السلام رسولًا لبني إسرائيل، وأن عيسىٰ أخبر بني إسرائيل أنه جاء بالأدلة التي تثبت أن الله بعثه رسولًا إليهم، ومن هذه الأدلة: أنِّي أصنع لكم من الطين ما يكون علىٰ شكل الطير ثم أنفخ فيه فيصير طيرًا بإذن الله، وأنِّي أرد للأعمىٰ بصره، وأشفي من به برص بإذن الله، وأنِّي أحيي من كان ميتًا بإذن الله، وأخبركم بما تأكلون وما تدخرون من الطعام في بيت كل واحد منكم بإذن الله، واعلموا أن في هذه الآيات العظيمة التي لا يقدر عليها أحد من البشر لَدَلِيلٌ وإثباتٌ لكم أني نبي ورسول من الله تعالىٰ، إن كنتم تؤمنون وتصدقون بحجج الله وآياته.

وقد كرر سبحانه في هذه الآية قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، مع كل معجزة ليؤكد أنه إنسان مثلهم، وأن هذه الخوارق هي بإقدار الله له وبإذنه حتىٰ لا يقدسوه ويعطوه صفة الربوبية، ومع ذلك لم يَسْلَمْ فقد وقع ما خوفهم منه.

[٥٠] ثم قال عيسىٰ عليه السلام لقومه: لقد جئتكم يا قوم مصدقًا للتوراة التي أنزلت علىٰ موسىٰ عليه السلام، ولست مخالفًا لشيء من أحكامها الخاصة بتوحيد الله، وأيضًا جئت لأخفّف عنكم بعض الأحكام المشددة فيها، فأُحِلَّ لكم بعض الذي حُرِّم عليكم، وقد جئتكم بحجج وبراهين تدل علىٰ صدق ما قلت لكم؛ فخافوا الله عز وجل وأطيعوني فيما جئتكم به من الله.

[٥١] واعلموا يا قوم أن الذي أرشدكم إلىٰ عبادة الله وحده هو الله ربي وربكم، وخالقي وخالقكم؛ فاعبدوه وأطيعوه، وهذا هو الطريق المستقيم الذي يوصلكم إلىٰ جنة ربكم.

[٥٢] فلما شعر عيسىٰ عليه السلام بإصرارهم علىٰ الكفر والجحود نادىٰ في بني إسرائيل فقال: من ينصر دين الله ورسوله منكم معي، فقال الخُلَّص من المؤمنين: نحن أنصار دين الله ورسوله، وصدقنا بالله، واتبعناك علىٰ الحق الذي جئت به، ونطلب منك يانبي الله أن تشهد يوم القيامة علىٰ تصديقنا واتباعنا لك.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ
﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ
مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم
مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ
عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ
عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ
كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ
﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟
نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا
وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

[٥٣] ثم دعا الحواريون ربهم فقالوا: ربنا صدّقنا بما أنزلت علىٰ عيسىٰ عليه السلام من الإنجيل واتبعناه؛ فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون أنك أنت الله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو.

[٥٤] ثم أخبر جل وعلا أن اليهود مكروا وتآمروا علىٰ قتل عيسىٰ عليه السلام، مدعين أن الآيات التي أتىٰ بها سحر، وقرروا عمل الجريمة، وعينوا من يتولىٰ ذلك، ولكن الله مكر بهم بأن رفع عيسىٰ عليه السلام، وألقىٰ شَبَهَهُ علىٰ رئيسهم في المؤامرة فقتلوه، واعلموا يامن مكرتم وتآمرتم علىٰ قتل عيسىٰ عليه السلام أن الله خير الماكرين، أي: أَنْفَذُ إرَادَةً وَأَقْدَرُ علىٰ إيصال الغير ما يستحقه.

وفي هذه الآية إثبات صفة المكر المقيد لله كما يليق بجلالِهِ وعظمتِهِ. والمكر نوعان: مكر سيِّئٌ ومكر حسن.

فالسيئُ: هو الإضرار بالآخرين بغير حق.

والحسن: هو دفع الظلم والانتقام من المجرمين.

والله جل وعلا يوصف بالمكر المقيد بالعلو والأفضل، فلا يقال: إن الله ماكر إلا إذا أضيفت له صفة الكمال، أي: المكر الأعلىٰ، أو المكر بالماكرين.

[٥٥] ومن مَكْرِ الله بهم أن الله جل في علاه قال: اعلم يا عيسىٰ أني قابضك ورافعك إليَّ بجسدك وروحك، ومخلصك من كيد الذين كفروا بك، وسأجعل الذين اتبعوا ما جئت به من الحق مُعَزَّزِينَ ومنصورين علىٰ الذين كفروا وجحدوا نبوتك إلىٰ يوم القيامة، ثم إلىٰ الله مرجعكم جميعًا يوم القيامة، يوم الجزاءُ والحساب ليحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون في أمر عيسىٰ عليه السلام وغيره.

[٥٦] ثم أخبر جل وعلا أن الذين كفروا من اليهود والنصارىٰ والمشركين وغيرهم؛ سوف يعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي والجزية، وفي الآخرة بالنار والعذاب الأليم، وليس لهم من يمنعهم من عذاب الله أبدًا.

[٥٧] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه وعملوا الأعمال الصالحة؛ سوف يعطيهم الله جزاء أعمالهم غير منقوصة، واعلموا أيها الناس أن الله لا يحب المتجاوزين لحدوده المقترفين لمعاصيه.

[٥٨] واعلم يا نبي الله أن ذلك الذي قصصناه عليك في شأن عيسىٰ عليه السلام هو من الدلائل علىٰ صدق رسالتك، وهو من القرآن الكريم المشتمل علىٰ العلم النافع المحكم المنجي من العذاب.

[٥٩] ثم بين المولىٰ سبحانه أن خَلْقَهُ لعيسىٰ عليه السلام من غير أب، كمثَل خلقه آدم عليه السلام من غير أب ولا أم؛ بل أمر آدم أغرب وأتَم في الإعجاز؛ حيث إن الله خلقه من تراب، ثم قال له: ﴿كُن﴾، فكان بشرًا سويًّا، وقد اتفق الجميع علىٰ أن آدم عبد من عباد الله؛ فكذلك عيسىٰ عليه السلام عبد من عباد الله.

[٦٠] واعلم يا نبي الله أن الحق الذي جاءك في شأن عيسىٰ عليه السلام هو ما قلناه وبيَّنَّاه لك فلا تكن من الشاكِّين.

وهذا أمر وتوجيه من الله ليعرف المؤمنون عمومًا وأتباع عيسىٰ - الذين يعتقدون أنه قتل وصلب -، خصوصًا وغيرهم؛ أن عيسىٰ عليه السلام لم يقتل، وأنه عبد الله ورسوله، أما نبينا محمد ﷺ فهو معصوم مما هو أقل من الشك فيما يبلغ عن ربه.

[٦١] ثم قال سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ: فإذا جادلك يانبي الله هؤلاء في عيسىٰ عليه السلام وزعموا أنه فوق منزلة العبودية، من بعد ما أخبرك القرآن أنه عبد الله ورسوله فادعهم للمباهلة، وقل لهم: تعالوا نجمع أقرب الناس وأحبهم إلينا من أبنائنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم، ثم ندعوا الله أن ينزل عقوبته ولعنته علىٰ الكاذبين المُصِرِّين علىٰ عنادهم وجحودهم.

وهذه الآية تسمىٰ: آية المباهلة، وتُسمىٰ في عصرنا الحاضر: بالتحدي، وقد نزلت في نصارىٰ نجران الذين جادلوا النبي ﷺ لما قدموا عليه في المدينة فدعاهم إلىٰ الإسلام، فأصروا علىٰ أنهم علىٰ حق، فأمره الله أن يدعوهم إلىٰ المباهلة، ووعدهم النبي ﷺ بالحضور للمباهلة نهار الغد، ومن الغد حضر الرسول ﷺ في الموعد وحضر معه الموجود من أسرته، ولكن لم يحضر النصارىٰ في الموعد لخوفهم وعلمهم بما سيترتب علىٰ ذلك، وقال بعضهم: إنْ باهلناه حلَّت بنا اللعنة، أي: تأكدوا أنهم كانوا يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ
﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ
تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا
وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾
إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۖ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

[٦٢] واعلم يا نبي الله أن هذا الذي قصصناه عليك في شأن عيسىٰ عليه السلام، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته، لهو من القصص الحق الذي لا مرية فيه، ثم اعلم أنه ما من إله حق إلا الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأنه جل في علاه هو العزيز الذي لا يمنعه مانع، ولا يغلبه غالب، الحكيم في خلقه وتدبيره سبحانه.

[٦٣] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أنه إذا أعرض هؤلاء الجاحدون عن تصديق ما جئت به من التوحيد والحق بعد كل هذه الحجج والبراهين الواضحة؛ فأخبرهم أن الله عليم بما تنطوي عليه نفوسهم من الفساد، لا يخفىٰ عليه شيء من أمرهم وما تخفيه صدورهم.

[٦٤] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء اليهود والنصارىٰ: تعالوا إلىٰ كلمة عادلة بيننا وبينكم، وهي أن نعبد الله وحده ولا نشرك معه في العبادة أحدًا، وأن لا يطيع بعضنا بعضًا في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله؛ فإن أعرضوا عن هذه الدعوة الحقة وعن توحيد الله؛ فقولوا لهم أيها المسلمون: اشهدوا يا أهل الكتاب أننا مسلمون منقادون ومستسلمون لله وحده، ومخلصون له في العبادة، وقد بلغناكم بالدين الحق وما علىٰ الرسول إلا البلاغ المبين.

[٦٥] وأمره سبحانه وتعالىٰ أن يقول لهؤلاء اليهود والنصارىٰ: لماذا تجادلون في إبراهيم بأنه يهودي أو نصراني، وأن كل فريق منكم يزعم أنه منهم، وأنتم تعلمون أن اليهودية والنصرانية ما جاءت إلا بعد التوراة والإنجيل، وتعلمون أن بين إبراهيم وموسىٰ ألف سنة، وبينه وبين عيسىٰ ألفان؛ فكيف تزعمون وتدعون أن إبراهيم منكم؟ أليس لكم عقول تجعلكم تفكرون في أقوالكم ومزاعمكم حتىٰ لا تجادلوا بالباطل؟!.

[٦٦] ثم قال جل شأنه: ها أنتم يا أهل الكتاب جادلتم الرسول في ما لكم به علم من أمر دينكم؛ كجدالكم في شأن عيسىٰ عليه السلام، أو ما جاء في التوراة من أحكام، فَلِمَ تجادلون في أمور لا علم لكم بها، كجدالكم في شأن إبراهيم عليه السلام؟ والله يعلم كل شيء في هذا الوجود، فهو يعلم حال إبراهيم ودينه، ويعلم حالكم ونياتكم، أما أنتم فلا تعلمون شيئًا من أمور الغيب.

[٦٧] ثم أخبر جل وعلا أن إبراهيم عليه السلام الذي يعظمه اليهود والنصارىٰ والمشركون لم يكن علىٰ مِلّة أحد منهم؛ بل كان مسلمًا موحدًا لله، مخلصًا له في العبادة، ولم يكن من المشركين الضالين.

[٦٨] واعلموا يا أهل الكتاب أن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته هم الذين أجابوا دعوته في زمنه فوحّدوا الله مخلصين، وكذلك النبي محمد ﷺ؛ لأنه دعا إلىٰ التوحيد الذي دعا إليه إبراهيم عليه السلام، وكذلك المؤمنون الذين اتبعوا النبي ﷺ في دعوة التوحيد والإيمان، واعلموا أن الله ولي المؤمنين المخلصين يتولىٰ أمورهم؛ فيوفقهم ويهديهم إلىٰ الطريق المستقيم.

[٦٩] ثم أخبر جل وعلا أن بعض اليهود والنصارىٰ كانوا يتمنون أن يردوكم عن دين الإسلام، وتعودوا لدين الكفر والضلال، وما علموا أنهم بهذا التمني ما يهلكون إلا أنفسهم، بسبب كفرهم وضلالهم، ولكنهم لا يحسون بذلك، ولا يعلمون أنهم في ضلال وغواية.

[٧٠] وهذا نداء من الله جل وعلا لأصحاب التوراة والإنجيل يقول فيه: يا أهل الكتاب ما الذي دعاكم إلىٰ الكفر بآيات الله مع علمكم أن ما أنتم عليه باطل؟ وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تَشُكُّونَ فيه، وتشهدون أنه حق، وفي كتبكم ما يؤيده.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ
وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ
بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ
ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ
عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ
ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ * وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ
يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ
إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي
ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ
٧٥ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ
٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا
أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ
إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧

[٧١] وهذا نداء آخر موجه أيضًا لأهل الكتاب يقول فيه: ياأهل التوراة والإنجيل ما الذي جعلكم تخلطون الحق بالباطل بأن تحرفوه وتزوروه، وتكتمون صفة النبي ﷺ الموجودة في كتبكم، وأنتم تعلمون أنه رسول الله حقًّا.

[٧٢] ثم أخبر جل وعلا أن طائفة من اليهود قالوا لأتباعهم: آمنوا بالقرآن الذي نُزِّل علىٰ محمد وأتباعه من المؤمنين أول النهار، واكفروا في آخره؛ لعلكم بهذا الفعل تفتنون المسلمين وتشككونهم في دينهم، فيرجعون عنه.

[٧٣] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ عن مكر اليهود وخبثهم وكيدهم للنبي ﷺ وللمؤمنين، حيث قال بعضهم لبعض: ولا تعترفوا أيها اليهود لأحد من الناس إلا لمن تبع دينكم فكان علىٰ اليهودية؛ ولا تعترفوا للمسلمين بالرسالة ولا بما عندكم من العلم، حتىٰ لا يكون حجة عليكم يوم القيامة، ولهذا أمر جل شأنه نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أيها اليهود أن الهداية بيد الله وحده، وأنه سبحانه يهدي من يشاء، وكذلك فإن أمر الرسالة بيد الله وليس بأيديكم يعطيها من يريد من عباده، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه واسع الفضل، عليم بمن يستحق هذا الهُدىٰ والفضل.

[٧٤] واعلموا ياأهل الكتاب أن الله جل وعلا يعطي النبوة والرسالة من يشاء من عباده، وأنه سبحانه يهدي من يشاء للإيمان، وهو جل في علاه وحده صاحب الجود والفضل العظيم.

[٧٥] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أن من اليهود من إن تأمنه بمال كثير يؤده إليك لأمانته، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك لخيانته؛ إلا ما زلت ملحًّا بالمطالبة عليه، وهذا تحذير من معاملتهم وعدم الاغترار بأمانة بعضهم، ثم بين سبحانه السبب الذي حملهم علىٰ الخيانة وهو قولهم: ليس علينا في العرب بأس ولا إثم؛ ولذلك فإنهم يستحلون أكل مال من عداهم من الأمم، ويقولون علىٰ الله الكذب؛ وهم يعلمون أن ما يقولونه كذب وافتراء علىٰ الله.

[٧٦] واعلموا أن الأمر ليس كما زعم اليهود؛ فإنَّ من أدَّىٰ حق غيره ووفَّاه في وقته كما عاهده عليه وخاف الله واتقاه؛ فإنه يفوز بمحبة الله؛ لأنه فعل ما أمره الله، وانتهىٰ عما نهاه الله.

[٧٧] واعلموا أن الذين يستبدلون بما عاهدوا الله عليه من الإيمان بالرسول المصدِّق لما معهم، وبما حلفوا به من قولهم: والله لنؤمنن به ولننصرنه؛ مقابل متاع الدنيا القليل الزائل بالنسبة لثواب الآخرة؛ فأولئك لا نصيب لهم يوم القيامة من الثواب، ولا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة نظر رحمة، ولا يطهرهم من ذنوبهم، ولهم عذاب مؤلم.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ
ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن
تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ
إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم
مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا
مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ
عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم
مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

[٧٨] يخبر جل وعلا أن من اليهود طائفة يلوون ألسنتهم عند الكلام، ويرتلونه كترتيلهم للوحي، يريدون بذلك أن يُفهموا السامع أن ما ينطقون به هو من التوراة، وما هو من التوراة؛ بل يقولون كذبًا وافتراءً أنه من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون علىٰ الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون في أقوالهم ودعواهم.

[٧٩] ويخبر جل وعلا عن النصارىٰ في كذبهم أن عيسىٰ عليه السلام أمرهم بعبادته، وأن يعتقدوا أنه إله، فرد سبحانه علىٰ مقولتهم: اعلموا أيها النصارىٰ أنه يمتنع ويستحيل علىٰ بشر بعد أن مَنَّ الله عليه بإنزال الكتاب والرسالة أن يقول للناس: كونوا عبادًا لي من دون الله؛ فهذا من المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، ولكنْ أمرهم أن يكونوا علماء حكماء، يعلِّمون الناس، ويوضحون لهم ما يحتاجونه من العلم؛ وبما يدرسونه منه.

[٨٠] ثم أخبر جل وعلا أنه لا يحق لنبي أن يأمر الناس بعبادة غير الله تعالىٰ؛ سواء كان ذلك الغير ملَكًا مكرمًا، أو نبيًّا مرسلًا، أو وليًّا من الأولياء؛ بل ينكر عليهم ذلك، ثم رد سبحانه مستنكرًا قولهم: أيعقل أن يأمركم بالكفر بعد أن أسلمتم، ودخلتم في دين الله؟!. وهذه الآية وما قبلها في الرد علىٰ النصارىٰ الذين اعتقدوا بألوهية عيسىٰ عليه السلام.

[٨١] واذكروا يا أهل الكتاب يوم أخذ الله من النبيين وأممهم الميثاق أنه مهما آتاهم من كتاب وحكمة ثم جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه، ثم قال سبحانه : هل أقررتم بما أمرتكم به وقبلتم عهدي؟ فقالوا: نعم أقررنا يا ربنا، فقال سبحانه: إذن فاشهدوا علىٰ أنفسكم بما أقررتم به، وأنا معكم من الشاهدين.

[٨٢] ثم أخبر جل وعلا أن من أعرض عن هذا الميثاق ولم يَفِ به يعتبر فاسقًا، وسيلقىٰ جزاء الفاسقين. وقد نقض هذا الميثاق اليهود والنصارىٰ، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به.

[٨٣] وبعد هذا البيان الواضح هل تطلبون يا أهل الكتاب دينًا غير دين الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعًا؟، وهو الدين الذي خضع له كل من في السماوات والأرض، إما طوعًا بالإرادة والاختيار، أو كرهًا بدون اختيار، واعلموا أن جميع الخلق سيرجعون إلىٰ الله يوم القيامة، وسيجازيهم علىٰ أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[٨٤] أمر جل وعلا نبيه ومن معه أن يقولوا: لقد صدَّقنا بالله المعبود وحده، وصدقنا بما نزَّله الله علينا من القرآن والشريعة، وصدقنا بما نزَّله الله من كتب وشرائع علىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأولاده الأسباط الاثني عشر، وصدقنا بما أنزل الله علىٰ موسىٰ من التوراة وعلىٰ عيسىٰ من الإنجيل، وما أنزل علىٰ سائر النبيين لا نفرق في الإيمان بين أحد منهم، ونحن بذلك قد أسلمنا وجهنا لله وحده.

[٨٥] واعلموا أن من يدين لله بغير دين الإسلام، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو الدين الحق، دين الإخلاص لله واتباع الرسل، وهو في الآخرة من الأشقياء المستحقين للعذاب، وخسران الجنان.

[٨٦] يخبر جل وعلا عن أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسوله محمدٍ ﷺ بعد أن آمنو به عليه الصلاة والسلام قبل مبعثه، وشهدوا أنه الرسول الحق بحسب ما عندهم في التوراة؛ وقد جاءتهم الدلائل والبراهين التي تدل علىٰ صدقه، وأنه رسول من عند الله؛ لذا قال سبحانه علىٰ سبيل التعجب والاستغراب والإنكار والاستبعاد: كيف يهدي الله هؤلاء ويدخلهم الجنة بعد كفرهم وضلالهم؟!، واعلموا أن الله لا يوفق لطريق السعادة الظالمين الذين كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بما جاءوا به.

ويدخل في هذه الآية المنافقون الذين آمنوا حقًّا ثم نافقوا.

[٨٧] ثم بين جل وعلا أن عقوبة أولئك المكذبين لرسالة محمد ﷺ أن عليهم لعنة الله، أي: الطرد من رحمته، وأيضًا عليهم لعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين.

[٨٨] ومن عقوبتهم أنهم ماكثون في نار جهنم، لا يخفف عنهم من عذاب النار، ولا هم يُمهلون.

[٨٩] ثم أخبر جل وعلا أن الذين تابوا فآمنوا بالله وصدقوا برسوله وعملوا بشرعه، وأصلحوا أعمالهم؛ فإن الله يغفر لهم ما فات من ذنوبهم، إنه سبحانه كثير المغفرة لعباده، رحيم بهم.

[٩٠] ثم أخبر جلّ وعلا أن الذين جحدوا دين الله بعد أن آمنوا، واستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم حتىٰ الممات؛ فهؤلاء لن تُقبل توبتهم؛ لأنهم هم وأشكالهم من الشَّاكِّين الحائرين، الذين لا

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ٨٤ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن
يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٨٥ كَيْفَ
يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ
ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٨٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ
ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١

يتوبون إلا بعد أن يحضُرَهم الموت، أي: بعد الغرغرة؛ وحينها لن تقبل توبتهم، واعلموا أن أولئك هم المُسْتغرقون للضَّلال كله.

ويدخل في هذه الآية جميع الكفار؛ لأنهم كلهم ضالون ومستمرون علىٰ ضلالهم.

[٩١] ثم أخبر جل وعلا أن الذين كفروا، واستمروا علىٰ كفرهم وضلالهم، وماتوا وهم كفار؛ فلوا أنفق أحدهم ملء الأرض ذهبًا؛ علىٰ سبيل الافتراض؛ ليفتدي به من عذاب الله فلن يقبل الله منه؛ وسوف ينال أولئك عقابهم الأليم؛ بسبب كفرهم وضلالهم، وليس لهم من ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله يوم القيامة.

لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ
إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ
مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾

[٩٢] واعلموا أيها المؤمنون أنكم لن تنالوا تقوىٰ الله تعالىٰ وثوابه ومغفرته؛ حتىٰ تتصدقوا مما تحبون من أموالكم، وما تنفقوا من شيء تحبونه في سبيل الله، فإن الله عليم به، وهو محفوظ لكم، وسيجازيكم عنه يوم القيامة خير الجزاء.

وهذه الآية فيها حث علىٰ الإنفاق في سبيل الخير.

[٩٣] ثم أخبر جل وعلا أن كل المأكولات كانت حلالًا لبني إسرائيل، وهم أبناء يعقوب عليه السلام، ولم يكن هناك شيء من الطعام مُحرَّم عليهم إلا ما حرَّم يعقوب علىٰ نفسه خاصَّة، وهو لحوم الإبل وألبانها لنذرٍ نذره، وكان ذلك قبل أن تُنزَّل التوراة، وهم يعلمون أن التوراة نزلت علىٰ موسىٰ بعد إبراهيم ويعقوب عليهما السلام؛ فكيف يدَّعون أن إبراهيم كان لا يأكل لحوم الإبل ولا يشرب ألبانها؛ فإذا جادلوك يا نبي الله في هذه المسألة فقل لهم: فأتوا بالتوراة فاقرؤوها إن كنتم صادقين في دعواكم، ثم حرم الله علىٰ اليهود بعض الأطعمة بسبب ظلمهم وعصيانهم لربهم.

[٩٤] واعلموا أن من اختلق الكذب علىٰ الله من بعد ما أقيمت عليهم الحجَّةُ، وظهرت البينة، وزعموا أنَّ ما حرمته التوراة من الطعام كان أيضًا محرمًا علىٰ الأنبياء وأممهم، وليس بسببِ بغي اليهود وظلمهم؛ فأولئك هم الكاذبون المتجاوزون لحدود الله.

[٩٥] وقل يا نبي الله لهؤلاء اليهود: اعلموا أيها اليهود أن الله صادق في كل أخباره وأنتم الكاذبون؛ والواجب عليكم أن تتبعوا ملة إبراهيم عليه السلام وهو دين الإسلام؛ فقد كان عليه السلام مائلًا وبعيدًا عن الباطل وأهله، واعلموا أن إبراهيم عليه السلام ما كان من المشركين؛ بل كان يعبد الله وحده لا شريك له.

[٩٦] ثم أخبر جل وعلا أن أول بيت بُني لعبادة الله في الأرض هو بيت الله الحرام، وهذا البيت بيت مبارك؛ فالحسنات فيه مضاعفة، وتتنزَّل فيه الرحمات، ويُسْتَقْبَلُ في الصلاة، ويُقْصَدُ لأداء الحج والعمرة، وهو هداية للناس، كما قال تعالىٰ: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[المائدة:٩٧].

وهذه الآية نزلت لما حُوِّلت القبلة إلىٰ الكعبة، فقال اليهود: بيت المقدس هو المستحق للعبادة فيه، وإليه التوجه؛ لأنه أرض المحشر، ومُهَاجَر الأنبياء، وأقدم بيت للعبادة؛ فكذَّبهم الله، وقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾، وبكة: المكان المزدحم، وهو من أسماء مكة لوجود الازدحام بها.

[٩٧] ثم أخبر جل وعلا أنه جعل في هذا المسجد المعظم دلالات واضحات علىٰ فضله وشرفه وقدسيته، فمن هذه الآيات: وجود آثار أقدام أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام علىٰ الحجر الذي كان يقف عليه حينما كان يرفع بنيان البيت مع ابنه إسماعيل عليهما السلام. ومن الآيات: أمنُ من دخله، وحرمة القتال فيه؛ إلا إذا بدأهم عدو فإن لهم أن يدفعوا المعتدي. ومن الآيات: وجوب حَجِّه قبل الإسلام، ثم لما جاء الإسلام جعل حَجَّه ركنًا من أركان الإسلام وفرضًا علىٰ المستطيع. ويدخل في الآيات: إهلاك من قَصَدَهُ بسوء كأصحاب الفيل وغيرهم. ثم أخبر جلّ وعلا أن من أنكر فريضة الحج فقد كفر، والله جلّ شأنه غني عنه، وعن حجِّه، وعن جميع أعماله؛ بل غني عن سائر خلقه.

[٩٨] وقل يا نبي الله لأهل الكتاب: لماذا تكفرون بهذا القرآن الذي فيه الحجج والبراهين الواضحة البينة علىٰ صدق نبوة خاتم المرسلين؟، واعلموا أن الله سبحانه مطلع علىٰ أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

[٩٩] وقل يا نبي الله لأهل الكتاب: لماذا تحاولون صرف مَن آمن بالله ورسوله واتبع الصراط المستقيم عن الهدىٰ والإيمان، وتريدون أن تبينوا أن دين الله فيه عوج وخلل، وأنتم تعلمون أنه الدين الحق، وما الله بغافل عن أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

[١٠٠] يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه؛ إن تطيعوا بعض اليهود والنصارىٰ فتقبلوا منهم بعض ما يأمرونكم به؛ فإنهم يضلونكم عن دينكم، ويعملون جاهدين حتىٰ ترجعوا عن دينكم الحق.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

[١٠١] وكيف يسوغ لكم أيها المؤمنون أن تكفروا بالله ورسوله والقرآن يتلىٰ عليكم، والرسول ﷺ بين أظهركم يعظكم ويأمركم بطاعة الله وينهاكم عن معصيته؟، واعلموا أن من يتمسك بدين الله، ويلتجئ إليه في جميع أحواله فقد أُرشده الله إلىٰ الدين الحق، وإلىٰ الطريق الذي لا اعوجاج فيه.

[١٠٢] يأمر سبحانه وتعالىٰ عباده الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه، أن يتقوا الله حق تقاته، ، وذلك بأن يستفرغوا وسعهم في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وجميع ما يسخطه، وعليهم أن يستَمِرُّوا علىٰ تقواهم وتمسكهم بهذا الدين العظيم حتىٰ آخر لحظة في حياتهم، فيموتون علىٰ الإسلام.

[١٠٣] ثم يأمر جلّ وعلا عباده المؤمنين أن يتمسكوا بدين الله مجتمعين عليه، ولا يتفرقوا، ويتذكروا نعمة الله عليهم يوم أن كانوا في الجاهلية متعادين، فَألَّف بين قلوبهم بالإسلام فأصبحوا إخوانًا متحابين، وكانوا بسبب كفرهم علىٰ طرف حفرة من النار فخلَّصهم الله منها بالإسلام؛ واعلموا أن بمثل هذا البيان البديع يبين الله لكم الدلائل والبراهين لتهدوا إلىٰ طريق الله المستقيم، وتفوزوا بسعادة الدارين.

[١٠٤] يوجه جل وعلا عباده المؤمنين بدعوة الناس إلىٰ الخير والصلاح عن طريق تكوين جماعة يدعون إلىٰ كل ما يحبه الله ورسوله، ويأمرون بكل ما فيه خير ونفع للناس، وينهون عن كل شر وفساد يضر بالمجتمع، واعلموا أن هؤلاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر هم الفائزون بجنات النعيم.

و(من) في قوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ علىٰ القول الراجح: للتبيين، مثل قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج:٣٠].

ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب علىٰ كل مسلم، كما في قوله ﷺ: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(١).

وقد طبق الملك عبدالعزيز رحمه الله ذلك حينما استتب له الحكم، فشكل هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المملكة العربية السعودية، وقد كان لها النفع الكبير في العباد والبلاد مما يشهد به القاصي والداني.

[١٠٥] ثم نهىٰ جل وعلا عباده المؤمنين بأن لا يكونوا كاليهود والنصارىٰ الذين تفرقوا واختلفوا بعد أن جاءتهم الدلائل والبراهين الواضحة المبينة للحق؛ ولكنهم اختلفوا وتعادوا وكفَّر بعضهم بعضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة:١١٣]، وبسبب اختلافهم وبعدهم وضلالهم أعد الله لهم يوم القيامة عذابًا عظيمًا لا يعلم قدره إلا الله.

ويدخل في هذا التهديد كل اختلاف وضلال وبُعد عن الحق.

[١٠٦] ثم يخبر جل وعلا عن يوم القيامة ذلك اليوم الذي تبيضُّ فيه وجوه المؤمنين بالفرح والسرور، وتسودُّ وجوه المجرمين بالحزن والكآبة؛ فأما الذين اسودَّت وجوههم فيقال لهم علىٰ وجه التوبيخ: كيف آثرتم الكفر والضلال علىٰ الإيمان والهدىٰ؟! فذوقوا العذاب بسبب كفركم وضلالكم.

[١٠٧] ثم أخبر سبحانه أن الذين ابيضَّت وجوههم فرحًا بسبب إيمانهم وصدقهم وإخلاصهم؛ ففي الجنة التي رحمهم الله بها هم فيها خالدون خلودًا أبديًّا لا يخرجون منها أبد الآبدين.

[١٠٨] واعلم يا نبي الله أن تلك آيات الله نقصُّها عليك بالحق الذي لا شك ولا ريب فيه، وما يريد الله جل في علاه ظلم أحد من الناس فيعذبه بغير ذنب ارتكبه؛ وإنه لا يعذب سبحانه إلا بعد الإعلام والإنذار.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ * لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

[١٠٩] واعلموا أيها الناس أن لله وحده ملك السماوات والأرض، وأن له الخلق والرزق والتدبير، وجميع ما في الكون ملك له، وإليه وحده جل في علاه مصير جميع الخلائق، ثم يحاسبهم جميعًا بحسب ما قدموا من خير أو شر.

[١١٠] واعلموا يا أمة الإسلام أنكم كنتم ولا زلتم خير الأمم، لأنكم تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتصدقون الله، ثم قال سبحانه: ولو آمن اليهود والنصارىٰ بالقرآن وبالنبي محمد ﷺ إيمانًا حقيقيًّا لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة، ثم بين جل شأنه أن فئة قليلة من أهل الكتاب آمنوا بالله وصدقوا بمحمد ﷺ، وأما أكثرهم فقد امتنع عن دين الله وطاعته.

[١١١] واعلموا أيها المؤمنون أن هؤلاء اليهود لن يضروكم إلا ضررًا يسيرًا كأن يؤذونكم باللسان؛ كالنميمة والوعيد والتهديد والافتراء ونحو ذلك، فإن قاتلوكم وأنتم متمسكون بدينكم فلن يصبروا علىٰ قتالكم وسوف يمدكم الله بنصر من عنده، ولن ينتصروا عليكم؛ بل سينهزمون أمامكم ويولون الأدبار بسبب ما يلقي الله في قلوبهم من الرعب والخوف. وقد وعد الله نبيه والمؤمنين الانتصار علىٰ اليهود؛ فصدق الله وعده؛ فلم يقاتل يهود المدينة رسول الله ﷺ إلا انهزموا.

[١١٢] يخبر جل وعلا أنه ضرب علىٰ اليهود الهوان والصَّغار حيثما وجدوا، فلا عز ولا عصمة لهم ولأموالهم إلا إن خضعوا لحكم المسلمين وأدوا الجزية؛ لكن في عصور انحطاط المسلمين وتخلفهم ساندت اليهودَ وحَمَتْهم أممٌ ذات شوكةٍ كما هو الواقع والله المستعان.

ثم أخبر سبحانه أنهم قد استحقوا غضب الله ولعنته لنقضهم العهود والمواثيق، وضربت عليهم الذلة والمسكنة؛ لأنهم كانوا يكفرون بآيات الله بغيًا وعنادًا، ويقتلون أنبياء الله - الذين يرشدونهم ويحسنون إليهم - بغير حق، وما جرأهم علىٰ ذلك إلا ارتكابهم المعاصي وإكثارهم منها، واعتداؤهم وتجاوزهم لحدود الله.

وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، لا يعني أن الأنبياء يمكن أن يقتلون بحق؛ فالأنبياء لا يقتلون بحق مطلقًا، وإنما قال: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، ليبين شناعة جرمهم وتضخيمه.

[١١٣] ثم أخبر جلّ وعلا أن أهل الكتاب غير متساوين في الحال؛ فمنهم أمة علىٰ الإيمان والدين الصحيح، وهم الذين أسلموا وآمنوا بالله ورسوله وعملوا بشرعه؛ ومن صفاتهم: أنهم يتهجدون في الليل، ويتلون آيات الله في صلاتهم، ويكثرون من السجود لله، وهذا ثناء عليهم بكثرة الصلاة.

[١١٤] ومن صفاتهم أيضًا أنهم: يصدقون بالله ورسوله، ويعتقدون بوحدانيته جل وعلا، ولا يشركون به شيئًا، ويؤمنون بيوم القيامة، ويأمرون بالطاعات، وينهون عن المعاصي والمنكرات، ويبادرون إلىٰ فعل الخيرات، وهؤلاء عند الله من عداد الصالحين.

[١١٥] ثم بين جل وعلا أن كل ما يفعله أهل الكتاب وغيرهم من العمل الصالح ومن الخيرات لن يُجْحَدُوه، وسوف يثابون عليه الثواب المضاعف، والله عليم بالمتقين فلن يضيع ثوابهم، كما قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص:٥٤].

وقيل: إن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد ﷺ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ
ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا
ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ۖ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ
﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ
كُلِّهِۦ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ
ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ
سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

[١١٦] واعلموا أيها الناس أنَّ الذين كفروا بالله ورسوله لن تَدْفَعَ عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا من عذاب الله، ولن تُجْدِي عليهم شيئًا من ثواب الله؛ بل ستكون حسرة وندامة عليهم، وسيعاقبون علىٰ عدم شكرها وعلىٰ الكفر بها، وهؤلاء الكفار مآلهم إلىٰ النار خالدين مخلدين فيها أبد الآبدين.

[١١٧] يشبه جل وعلا ما ينفقه الكفار في هذه الحياة الدنيا من برٍّ، وصدقة، وصلة رحم، وغير ذلك؛ كمثل ريح فيها بردٌ يضرُّ الحرث والنبات، أصابت تلك الريح زرعَ قومٍ ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، فأهلكت الريح ذلك الحرث، ثم بين سبحانه أنه ما ظلمهم بهذا الجزاء، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمحرمات.

وهذا جزاؤهم في الآخرة، وأما في الدنيا فقد أخذوا الجوائز والسمعة ومتع الحياة الفانية.

[١١٨] يحذر جل وعلا عباده المؤمنين من اتخاذ الكفار أولياء يستشيرونهم ويطلعونهم علىٰ أسرارهم؛ فإن هؤلاء الكفار لا يفترون عن إفساد أموركم الدينية والدنيوية؛ بل يفرحون بمشقتكم وعنتكم، وقد ظهرت شدة البغض في كلامهم، وما يخفونه في صدورهم من العداوة والبغضاء أشدُّ وأعظم، وقد بين الله لكم أيها المؤمنون الحجج والبراهين الدالة علىٰ حقدهم وبغضهم، ولذا يجب عليكم أن لا تتخذوهم أولياء إن كنتم تعقلون.

وقوله: ﴿بِطَانَةً﴾: بطانة الرجل هم خواصُّ أصحابه الذين يعرفون أسراره ويرتاح للحديث معهم في خلواته؛ لهذا يجب أن يختار الإنسان الأصحاب الصالحين المستقيمين الذين يشجعونه علىٰ الخير، ويحذرونه من مزالق السوء وكيد الشيطان.

والآية تعم هؤلاء المنافقين الذين يظهرون الإسلام، وإن كان نزولها في بعض المسلمين الذين لهم أصحاب من الكفار والمنافقين يرتاحون لهم ويستمعون لما يبثون لهم من شكوك وشرور، كما قال تعالىٰ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧].

[١١٩] ثم حذر جل وعلا من محبة المنافقين فقال سبحانه: فها أنتم أيها المؤمنون تحبونهم، وترجون لهم الهداية والخير، وهم لا يحبونكم؛ بل يكرهونكم ويعادونكم، ويتمنون لكم الشر؛ مع أنكم تؤمنون بالكتب المنزَّلة كلها؛ وإذا لقوكم نافقوا وقالوا: آمنا بالله وبرسوله، وإذا خلوا بأنفسهم عضوا عليكم الأنامل من الغيظ، وعض الأنامل: عادة يفعلها المتغيِّظُ الحاقد إذا لم ينل من عدوه، فقل يا نبي الله لهؤلاء: استمروا علىٰ غيظكم حتىٰ تموتوا، فإن الله عليم بما في قلوبهم من الكراهية والبغض للمؤمنين.

[١٢٠] واعلموا أيها المؤمنون أنه إن تمسسكم حسنة من نصر أو غنيمة أو غير ذلك من نعم الله؛ تُحْزِنُ هؤلاء المنافقين، وإن تصبكم هزيمة أو فقر أو قتل وغيره يفرحوا بها، و﴿يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:٥٠]، أي: احتطنا فنجونا، وإن تصبروا علىٰ عداوتهم، وعلىٰ ما تسمعون من أذاهم، وتتقوا الله فتعملوا بطاعة الله وتكُفُّوا عن موالاتهم، فلن تضركم عداوتهم وبغضهم شيئًا، والله عالم بما يدبرون لكم من المكائد، لا يخفىٰ عليه سبحانه شيء من أمرهم.

[١٢١] واذكر يانبي الله يوم أن لبست ملابس القتال وخرجت من بيتك لتوحد وتنظم صفوف المحاربين وتوزع الأبطال بين الميمنة والميسرة في غزوة أحد، وأقمت الفرسان في المكان الذي في الجبل الذي يمكن أن يلج منه فرسان الكفار فيهجمون علىٰ صفوف المسلمين من خلفهم فتحصل لهم كارثة، وأوصيتهم أن لا يتركوا مكانهم؛ سواء انتصر المسلمون أو هُزموا، والله سميع لأقوالكم عليم بأفعالكم.

إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ
﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ
وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾
لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ
ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ
لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

[١٢٢] واذكر يانبي الله ما وقع من بني سلمة وبني حارثة؛ حيث حدثتهم أنفسهم بترك القتال معك في غزوة أحد والرجوع مع زعيم المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول؛ حيث حاول أن يقنعهم بترك المعركة والرجوع للمدينة، وكاد عدوُّ الله أن ينجح، ولكن الله سلَّم فتولىٰ أمرهم؛ وثبتهم، وصدهم عن النكوص، وساروا مع النبي ﷺ متوكلين علىٰ الله، وعلىٰ الله وحده فتوكلوا أيها المؤمنون.

[١٢٣] وتذكروا أيها المؤمنون يوم أن منَّ الله عليكم ونصركم علىٰ المشركين في معركة بدر مع خوفكم وضعفكم وقلة عددكم، لذا يجب عليكم أن تخافوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر؛ لعلكم تكونون من الشاكرين لله علىٰ نعمه وفضائله.

[١٢٤] وتذكر يانبي الله يوم أن قلت لأصحابك: أما يكفيكم في طمأنينة نفوسكم إعانة ربكم لكم بثلاثة آلاف من الملائكة مرسلين من عند الله لتقويتكم وتثبيتكم.

[١٢٥] ثم قال ﷺ لهم: نعم يكفيكم هذا العدد، وإذا صبرتم علىٰ لقاء العدو واتقيتم الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ثم هاجمكم العدو بشجاعة فإن الله سوف يمدكم في حينها بخمسة آلاف من الملائكة معلَّمين بعلامات مخصوصة.

[١٢٦] ثم بين جل وعلا أنه ما جعل إمدادكم بالملائكة إلا بشارة لكم بالنصر، ولتستريح به قلوبكم، واعلموا أن النصر من عند الله العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم الذي يضع النصر في موضعه المناسب.

[١٢٧] واعلموا أيها المؤمنون أن النصر الذي حصل لكم ببدر لكي يُهْلِكَ طائفة من الذين كفروا، ويغيظ الباقين ويذلهم ويخزيهم، فيرجعوا منهزمين خاسرين.

[١٢٨] يخبر جل وعلا بما حدث للنبي ﷺ في معركة أحد؛ حيث شجوه وكسروا رَباعيته؛ فدعا عليهم صلوات الله وسلامه عليه، فعاتبه جل في علاه، وقال له: ليس لك من أمر العباد شيء، وإن الأمر كله بيد الله وحده، واعلم أن من هؤلاء الذين يقاتلونك سوف يتوب الله علىٰ بعضهم؛ ومنهم من سوف يعاقبهم الله لأنهم ظالمون مستحقون للعقوبة.

وهؤلاء الذين تاب الله عليهم لعلمه سبحانه أنهم سيسلمون وينصُرون الإسلام، وقد أسلموا فتاب الله عليهم ونصروا الإسلام والمسلمين، وكان من هؤلاء: سيف الله خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة، وأبو سفيان، رضي الله عنهم أجمعين.

[١٢٩] ثم أخبر جل وعلا أن الأمر له وحده؛ لأن جميع ما في السماوات وما في الأرض ملكه، يغفر لمن يشاء من عباده، ويعذب من يشاء منهم، والله غفور لذنوب من تاب من عباده، رحيم بهم.

[١٣٠] ثم حذر سبحانه عباده المؤمنين من التعامل بجميع أنواع الربا، ونهاهم عن أكله أضعافًا مضاعفة، وأمرهم بمخافة الله وتقواه، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وبين أن هذا هو سبيل الفوز بخيري الدنيا والآخرة.

وهذه الآية تتحدث عن الربا مع أن ما قبلها وما بعدها يتحدث عن الحرب والجهاد؛ ليبين سبحانه أن الدين كله مرتبط ببعضه البعض، وأن المسلمين لن يُهزموا إلا إذا ابتعدوا عن دينهم، وتركوا أوامر الله في كل شيء.

قال المفسر الشيخ الشعراوي: جاءت هذه الآية في وسط آيات القتال لِيُعْلَمَ أن الدين كله مهم؛ بل هو شيء واحد.

وقال آخرون: بل جاءت لأن الهزيمة حصلت بسبب الطمع في المال، قالوا: إن المسلمين انتصروا في أول المعركة، وبدأ بعضهم بجمع الغنائم؛ فلما رأىٰ الرماة ذلك تركوا مواقعهم من أجل جمع الغنائم؛ لذا حذر الله من أخذ المال بالباطل، وأن لا يحول المال بين المرء ونصرة الإسلام والمسلمين.

[١٣١] ثم أمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يخافوا نار جهنم التي هيأها سبحانه للكافرين المجرمين، وذلك بترك كل ما يؤدي إلىٰ دخولها، ومن ذلك ترك الربا.

[١٣٢] ثم أمر جل وعلا عباده بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، في جميع الأوامر والنواهي؛ حتىٰ يُرحموا في الدنيا والآخرة.

* وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ
عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟
فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟
لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا
فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن
رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ
أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ
﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾
وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ
ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾

[١٣٣] يأمر جل في علاه عباده المؤمنين بالمسارعة إلىٰ العمل الصالح، حتىٰ ينالوا من الله مغفرة ذنوبهم لأنه المالك لأمرهم، وينالوا جنة واسعة عرضها كعرض السماوات والأرض هُيئت لمن يتقون الله بفعل الطاعات واجتناب المحرمات.

[١٣٤] ثم بين جل وعلا أن من صفات هؤلاء المتقين: أنهم ينفقون أموالهم في حال العسر واليسر، وإذا حصل لهم من غيرهم أذية فإنهم يكظمون ما في قلوبهم من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة السيئة؛ بل يعفون عن كل من أساء إليهم بقول أو فعل، والله يحب المحسنين الذين يتصفون بمثل هذه الصفات العظيمة.

[١٣٥] ومن صفات هؤلاء المتقين أيضًا: أنهم إذا فعلوا كبيرة كالزني وغيره، أو ظلموا أنفسهم بارتكاب ما دونه، ذكروا الله لاجئين تائبين إليه، يطلبون منه أن يغفر لهم ذنوبهم، وهم يعلمون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، ولا يصرون علىٰ معصيةٍ، ويعلمون أن التوبة إذا قُبلت تمحوا ذنوبهم.

[١٣٦] ثم بين جل وعلا أن أولئك المتقين الذين يتصفون بهذه الصفات الجليلة جزاؤهم عند الله مغفرةٌ لذنوبهم، ولهم حدائق وبساتين تجري أنهار الجنة من بين أشجارها وقصورها، وأنهم ماكثون في الجنة لا يخرجون منها أبد الآبدين، ونعم هذا الجزاء وهذا الثواب للعاملين بطاعة الله حسب تعليمات رسوله ﷺ.

[١٣٧] يخاطب جل وعلا عبادة المؤمنين فيقول لهم: اعلموا أيها المؤمنون أنه قد مضىٰ من قبلكم أجيال وأمم جرىٰ لهم ما جرىٰ لكم من الابتلاء والامتحان؛ فسيروا في الأرض وانظروا كيف أهلك الله الذين كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم.

وفي هذا حث للناس علىٰ الاعتبار والاتعاظ.

[١٣٨] واعلموا أيها الناس أن فيما ذكرناه لكم من أخبار الأمم السابقة دلالة ظاهرة ليتبين لكم الحق من الباطل، وفيه هداية وموعظة للمتقين؛ لأنهم هم المنتفعون بالآيات والمواعظ، وأما غير المتقين فهي بيان وتحذير وتهديد لهم.

[١٣٩] ثم يسلي جل وعلا المؤمنين عما أصابهم يوم أحد بأن لا يضعفوا عن جهاد الأعداء بسبب ما نالهم من الهزيمة، وأن لا يحزنوا علىٰ ما فاتهم من الغنيمة، وستكون لهم العاقبة بالنصر والظفر إن كانوا مؤمنين؛ لأن الإيمان يرفع عن المؤمن الوهن والحزن، ويؤمله بنصر الله إذا امتثل أمر الله.

[١٤٠] ثم يخاطب سبحانه وتعالىٰ عباده المؤمنين تعزية وتسليه لهم بعد أن قتل منهم سبعون في معركة أحد، فقال لهم: اعلموا أيها المؤمنين إن كان قد أصابتكم جراح وألام يوم أحد فقد أصابت المشركين جراح مثلها يوم بدر، وتلك أيام الدنيا نداولها ونصرفها بين الناس؛ فمرة لكم ومرة عليكم، وإنما نجعل الدُّولَةَ للكفار علىٰ المؤمنين ليميز الله المؤمن المخلص من المنافق الذي يرتد عن دينه إذا أصابته نكبة، وأيضًا ليكرم بعض المؤمنين بالشهادة فيرتقي في الجنة في أعلىٰ الدرجات، والله لا يحب الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي والنفاق.

وفي هذه الآية تعليم للمؤمنين المحاربين: أن من يخالف أمر القائد مثل ما فعل الرماة لالتقاط الغنائم، فإنه لا يضر نفسه فقط؛ بل يضر الجيش كله، وربما يتحول النصر إلىٰ هزيمة.

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن
قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ
ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ
ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ
وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ
رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟
وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن
قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ
ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

[١٤١] واعلموا أيها المؤمنون أن ما وقع يوم أحد من هزيمة كان اختبارًا وتصفية وتطهيرًا للذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، وتخليصًا لهم من المنافقين المندسين بينهم، وأيضًا إهلاكًا للكافرين على أيدي المؤمنين ومحوًا لأثرهم.

[١٤٢] ثم سأل سبحانه على سبيل الإنكار والاستبعاد فقال: هل تظنون أيها الصحابة الكرام أنكم ستدخلون الجنة ولم تجاهدوا في سبيل الله جهاد الصابرين على شدائده ومتاعبه؟ فاعلموا أنه لن يدخل الجنة أحد منكم حتى يتميز أهل الإيمان والصدق والجهاد والصبر من غيرهم، وأن من أراد الفوز والظفر؛ سواء في أمور الدنيا أو الآخرة فلابد أن يعمل بجد وإخلاص مع الصبر على الابتلاء.

كما قال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
إن السفينة لا تجري على اليبس

وقالوا في الأمثال: (من جد وجد، ومن زرع حصد).

[١٤٣] ثم ذكَّر جل وعلا بعض الصحابة الذين كانوا يتمنون الموت والشهادة في سبيل الله؛ عندما فاتتهم معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون؛ وقد تمنَّوا ذلك قبل أن يلاقوا العدو ويروا القتال وشدته، فالآن رأيتم الموت يوم أحد بأم أعينكم؛ ورأيتم إخوانكم وهم يقتلون أمامكم، فلماذا جَبُنتم وانهزمتم؟ أليس هذا هو الموت الذي كنتم تتمنونه والشهادة التي كنتم تنشدونها؟

ولا شك أن سبب انهزامهم أن الرماة تركوا مواقعهم فأتاهم العدو من خلفهم ومن أمامهم، ولكن مع ذلك كان الأولى بهم الاستبسال والثبات بدلًا من الفرار.

[١٤٤] واعلموا أيها الناس أنَّ محمدًا ﷺ ما هو إلا رسول قد مضت من قبله رسل كثيرون، وهؤلاء الرسل ماتوا جميعًا عندما جاء أجلهم، وهكذا محمد ﷺ سوف يأتيه أجله ويموت كغيره ممن سبقه من الرسل، أفإن مات أو قتل تركتم ما جاءكم به من الإيمان والعمل الصالح كالجهاد وغيره؟؛ فاعلموا أن من ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا، وإنما يضر نفسه، والله غني عنه، وسوف يثيب الله الشاكرين الذين ثبتوا على دينه، وعبدوه في كل أحوالهم.

[١٤٥] ثم أخبر سبحانه أن الآجال بيده وحده، وأنه لا يمكن لنفس أن تموت إلا بأمر الله؛ حين ينتهي أجلها المحدد بوقت معلوم لا يعلمه إلا الله، فإذا جاء أجلها فإنها لا تستأخر ساعة ولا تستقدم، واعلموا أيها الناس أن من يريد بعمله ثواب الدنيا؛ فإن الله سوف يؤتيه ما كتب له منها، وليس له حظ في ثواب الآخرة، ومن يريد بعمله ثواب الآخرة، وما أعده الله للمتقين؛ فإن الله يؤتيه منها ما يستحقه من النعيم المقيم، ومن أراد ثواب الدنيا والآخرة فرحمة الله وكرمه تسعه، وسيجزي جل في علاه الشاكرين على قدر شكرهم في الدنيا والآخرة خيرًا.

[١٤٦] ثم أخبر جل وعلا أن كثيرًا من الأنبياء قاتلوا لإعلاء كلمة الله، وقاتل معهم كثير من المؤمنين المخلصين لربهم؛ وأصابهم ما أصابهم في سبيل الله؛ فلم تضعف قلوبهم، ولم تفتر عزائمهم، ولم يخضعوا لأعدائهم بسبب ما أصابهم، واعلموا أن الله يحب الصابرين على الأهوال والشدائد، ويثيبهم سبحانه على البلاء.

[١٤٧] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الذين قاتلوا مع أنبيائهم وصبروا كان دعاؤهم وهم في ساحات القتال: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، وما وقع منّا من تجاوز في أمر ديننا، وثبِّت أقدامنا حتى لا نولي الأدبار، وانصرنا على مَن جحد وحدانيتك ونبوة نبيك.

[١٤٨] ثم بين سبحانه أنه أعطاهم ثواب الدنيا من النصر والمغنم، وأعطاهم في الآخرة الفوز برضاه، والجنة والنعيم المقيم، والله يحب المحسنين الذين أحسنوا في عبادة ربهم وأحسنوا في معاملة الخلق.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ
﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى
فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن
يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ
غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا
مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

[١٤٩] ياأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله ﷺ وعملوا بشرعه إن تطيعوا الكفار والمنافقين فسوف يُرجعونكم إلىٰ أول أمركم من الكفر والشرك بالله فتعودوا بالخسارة والهلاك في دينكم ودنياكم.

[١٥٠] واعلموا أيها المؤمنين أن هؤلاء الكفار لن ينصروكم أبدًا؛ بل الله جل في علاه هو الذي سينصركم ويتولىٰ أمركم، وهو سبحانه أعظم الناصرين.

[١٥١] يخبر جل وعلا أنه سَيَقْذِفُ في قلوب الذين جحدوا دين الله ورسالة نبيِّه ﷺ الخوف والفزع منكم؛ فلا يستطيعون مقاتلتكم بسبب إشراكهم بالله وعبادتهم للأصنام والأوثان من غير أن ينزل الله لهم بذلك حجة أو برهانًا، ثم مرجعهم إلىٰ النار، وساء المقام مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي.

[١٥٢] ثم أخبر جل وعلا أنه حقق وعده لكم بالنصر في أول المعركة عندما كنتم تزيلون رؤوس المشركين بسيوفكم وتقتلونهم قتلًا شديدًا متتابعًا، وكان الرماة يحرسونكم من خلفكم، ويمنعون تقدم خيَّالة المشركين خالد بن الوليد وزملائه الفرسان عن الوصول إليكم؛ فلما كثر القتل في المشركين ورأىٰ الرماة الغنائم، تنازعوا واختلفوا وعصوا أمر رئيسهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه؛ الذي ثبت مع قلة منهم حتىٰ قتل؛ فكان من نتائج هذا الاختلاف والعصيان أن تركوا أماكنهم بعد أن رأوا النصر بأعينهم، وسارعوا إلىٰ جمع الغنائم فهجم خالد بن الوليد وفرسانه عليهم من خلفهم؛ فتحول النصر إلىٰ هزيمة، وشُجَّ رسول الله ﷺ، وكُسرت رَباعيته، وتبين أن منكم من كان يريد الدنيا، ومنكم من كان يريد الآخرة، وما أعد الله فيها من الأجر والثواب لمن يجاهد ويُقْتَلُ في سبيله أو ينتصر، ثم صرف الله وجوهكم عن عدوكم لمخالفتكم أمر نبيكم، ثم إنه سبحانه عفا عنكم لمّا علم ندمكم وتوبتكم، والله ذو فضل عظيم علىٰ المؤمنين الصادقين التائبين.

وهذه الآية نزلت لما رجع المسلمون من معركة أحد؛ فقال بعضهم: كيف هزمنا وقد وعدنا الله النصر؟؛ فنزلت هذه الآية شرحًا لسبب الهزيمة.

ولو استمر النصر للمسلمين مع المخالفة لقالوا: خالفنا الأوامر وانتصرنا؛ فلا قيمة للاحتياطات وامتثال الأوامر، وهذا درس استفاد منه المسلمون في كل المعارك التي بعدها.

[١٥٣] وتذكروا يا أصحاب رسول الله ﷺ يوم أن رجعتم هاربين لا يلتفت بعضكم إلىٰ بعض بسبب الخوف والرعب الذي أصابكم، والرسول ﷺ ثابت يناديكم من خلفكم قائلًا: إليَّ عباد الله، أنا رسول الله، حيٌّ لم أقتل، وأنتم لا تسمعون ولا تلتفتون إليه، فجازاكم الله علىٰ فعلكم غمًّا بسبب غمِّكم لرسول الله ﷺ لكي لا تحزنوا علىٰ ما فاتكم من نصر وغنيمة، ولا ما حلَّ بكم من خوف وهزيمة، واعلموا أن الله مطلع علىٰ كل ما حصل منكم، لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً
مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ
ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ
يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ
فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ
يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ
مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟
وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

[١٥٤] ثم أخبر جل وعلا أنَّه بعد الغم الشديد الذي أنزله على الصحابة رضي الله عنهم جزاءً لغمهم لرسول الله ﷺ؛ أنزل سبحانه السكينة والنعاس على المسلمين المهاجرين والأنصار، أما المنافقون فقد أصيبوا بالرعب والقلق، وكان همهم خلاص أنفسهم؛ بل أساؤوا الظن بالله وبدينه وبرسوله ﷺ، يقولون: لسنا مسئولين عن هذه الهزيمة؛ لأنه لم يكن لنا رأي، وليس في يدنا شيء من الأمر، فأمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن الأمر كله بيد الله، ثم قال سبحانه لنبيه: واعلم أنهم يخفون في أنفسهم ما لا يظهرونه من الشك والكفر والنفاق، ويقولون: لو كان لنا في هذه المعركة رأي واختيار ما قتلنا هاهنا، ولو كان محمدٌ محقًّا لانتصرنا كما وعدنا؛ وهذا إنكار وتكذيب بِقَدَرِ الله، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم: اعلموا أن الأعمار بيد الله؛ فحتى لو كنتم في بيوتكم ولم تخرجوا للقتال؛ لجعل الله الذين كتب عليهم القتل يخرجون إلى أماكن قتلهم فيقتلوا فيها؛ فإن الأجل إذا جاء لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، وما جعل الله ذلك إلا ليختبر ما في صدوركم من الشك والنفاق وضعف الإيمان، وليميز المؤمن من المنافق، والله عليم بما في صدوركم من خير أو شر، لا يخفى عليه شيء من أموركم.

[١٥٥] ثم عاتب جل وعلا الصحابة الذين فرُّوا من القتال يوم التقى المؤمنون والمشركون في غزوة أحد، وأخبر سبحانه بأن الشيطان أوقعهم في هذا الذنب بسبب أخطائهم؛ ولكنهم ندموا وتابوا واستغفروا الله فعفا عنهم، وَقَبِلَ توبتهم، وَقَبِلَ الرسول ﷺ اعتذارهم، لأنه سبحانه غفور واسع المغفرة، حليم لا يعاجل العاصي بالعقوبة. وهكذا امتلأت غزوة أحد بالدروس والاختبارات والتمحيص.

[١٥٦] ياأيها الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ وعملوا بشرعه؛ لا تشابهوا المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، وقالوا لإخوانهم في النسب أو في النفاق إذا خرجوا للتجارة أو خرجوا للجهاد: لو لم يسافروا وبقوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وفي هذا تكذيب لقضاء الله وقدره؛ لأن قضاء الله تعالى لا يُدفع، وأمره لا يُرد، وقد قالوا ما قالوا معتقدين أن ذلك فيه مضرة للمؤمنين، ولكن كان عاقبة قولهم حسرة في قلوبهم، واعلموا أن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، وأن بيده مقادير كل شيء، وأنه مطلع على أعمال عباده، وسوف يجازيكم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

[١٥٧] واعلموا أيها المؤمنون أنكم إذا قُتلتم في الجهاد في سبيل الله، أو مُتم على فرشكم؛ وأنتم تنوون الجهاد في سبيل الله؛ فسوف تظفرون بالشهادة التي هي أسمى مطالب المجاهدين؛ لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وتظفرون أيضًا برحمة الله الواسعة، وهذا كله خير لكم مما تجمعون من حطام الدنيا الفاني.

وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ
لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ
فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ
فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ
بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن
يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ
مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ
يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ
أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ
قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

[١٥٨] واعلموا أيها المؤمنون بأنكم سواءٌ مُتُّم على فُرُشِكم، أو قُتلتم في الجهاد؛ فلن تذهب أعمالكم هباءً؛ بل ستحشرون إلى الله فيجازيكم على جهادكم وإخلاصكم.

[١٥٩] ثم أخبر سبحانه وتعالى أن النبي ﷺ كان رحيمًا بأصحابه، ولهذا كان ﷺ لين الجانب معهم، مع أنهم خالفوا أمره وعصوه؛ سواء الرماة، أو الذين انسحبوا، وتسببوا في أخطاء غيرت مجرى النصر إلى هزيمة، ثم بين له سبحانه أنه لو كان سيِّيء الخلق قاسي القلب معهم لانصرفوا عنه ونفروا منه؛ ثم أمره سبحانه أن يعفو عمّا صدر منهم من التقصير، ويستغفر لهم، ويشاورهم في الأمور التي يحتاج فيها إلى مشاورة؛ فإذا اجتمع رأيك على أمر من الأمور فاعزم عليه معتمدًا على الله وحده، فإن الله يحب المتوكلين عليه اللاجئين إليه.

و(ما) في قوله: ﴿فَبِمَا﴾ زائدة لتأكيد الرحمة التي منحها جل وعلا لنبيه ﷺ.

[١٦٠] واعلموا أيها المؤمنون أن الله إذا أراد لكم النصر والعز والتمكين؛ فلن يستطيع أحد أن يغلبكم أبدًا، ولو اجتمع عليكم أهل الأرض جميعًا؛ لأنه لا غالب له سبحانه، وإذا أراد هزيمتكم؛ فمن ذا الذي يستطيع أن ينصركم غيره جل في علاه، وهذا يعني: أن الأمر كله أولًا وأخرًا بيد الله وحده، وعلى الله توكلوا؛ لأنه هو الناصر والمعين وحده، وأن الاعتماد على غيره شرك.

[١٦١] يخبر جل وعلا أنه لا ينبغي ولا يصح لنبي أن يخفي شيئًا من الغنيمة؛ لأن من يخون ويخفي شيئًا من الغنيمة فإنه يأتي يوم القيامة حاملًا له ليفضحه الله على وجوه الخلائق، ثم تعطى كل نفس ما كسبت من خيرٍ أو شرٍّ، دون أن يُظلم أحد.

وَذِكْرُ النبي في هذه الآية مبالغة في التحذير من الغلول؛ وإلا فإن النبي ﷺ معصوم، ولا يمكن أن يقع منه الغلول.

والمقصود من هذه الآية: هو التحذير من الغلول، الذي هو أخذ شيء من الغنائم قبل قسمتها، وكما أن الأنبياء منزهون ومترفعون عن أخذ شيء من الغنائم وإخفائها، فكذلك يجب على المحاربين أن لا يختلس أحد منهم شيئًا من الغنائم.

[١٦٢] ثم قال جل في علاه: هل يستوي أيها الناس الذي يتقي الله ويسعى في تحصيل رضا الله بالطاعة والعمل الصالح، مع الذي باء بغضبٍ عظيمٍ من الله بسبب الذنوب والمعاصي التي ارتكبها، ثم يكون منزله ومصيره جهنم، وبئس ذلك المصير والمنقلب؟، ولا شك أنهما لا يستويان أبدًا، والاستفهام استنكاري، يعني: أنهما لا يستويان.

[١٦٣] فلا شك أيها الناس أنهم متفاوتون في الدرجات؛ فالذين اتبعوا رضوان الله لهم أجر عظيم وثواب جزيل، وأما الذين باءوا بغضب الله فأولئك لهم عذاب أليم مهين، والله بصير بجميع أعمال عباده لا تخفى عليه منها خافية مهما دقت.

[١٦٤] واعلموا أيها الناس أن نِعَمَ الله جلّ وعلا على عباده غامرةٌ كثيرةٌ، ومن أهمها أن بعث فيهم هذا الرسول الزكي الطاهر المنزَّه عن العيوب، يقرأ عليهم آيات الله، ويطهر قلوبهم من الشرك والأخلاق السيئة، ويعلمهم القرآن والسنة، وإن كانوا من قبل مجيء محمد ﷺ لفي ضلال واضح ظاهر لا يخفى على أحد.

وقد كان ﷺ حريصًا على هداية الخلق، وكان يسعى ليلًا ونهارًا لإخراجهم من الظلمات إلى النور، لا يفتر مهما واجهه من صعوبات، ومهما لحقه من أضرار وأذيات؛ فصلى الله عليه وعلى آله وسلم، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

[١٦٥] ثم عاتب جل وعلا الصحابة الذين كانوا سببًا في الهزيمة يوم أحد، ووقعت المصيبة؛ حيث قتل منهم سبعون، فأخبر سبحانه أنهم قد أصابوا مثليها؛ حيث قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين، وكان النصر حليفهم، ثم قالوا متعجبين: كيف ننهزم وقد وعدنا الله بالنصر؟! فقل لهم يانبي الله: أنتم سبب الهزيمة؛ لأنكم عصيتم رسول الله بمخالفة الرماة أمره، ثم فراركم من المعركة تاركين القتال، واعلموا أن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء من أمر عباده في الأرض ولا في السماء.

والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمَّآ﴾، للمعاتبة والتقريع.

وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۖ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

[١٦٦] يخبر جلّ وعلا أن ما أصاب المؤمنين من جراح أو قتل في غزوة أُحدٍ يوم الْتقىٰ المسلمون والمشركون كان بتقدير الله وتدبيره، وليتميز المؤمنون الصادقون من المنافقين المجرمين؛ فيظهر إيمان المؤمنين علىٰ حقيقته، وكفر المنافقين علىٰ حقيقته، ويتميز من يريد الدنيا عمن يريد الآخرة؛ كما هو معلوم لله في الأزل.

[١٦٧] ثم أكد جل وعلا أن ما أصاب المسلمين يوم أحد ليتميز المنافقون الذين انكشف أمرهم عندما طلب منهم المؤمنون أن يأتوا ليقاتلوا معهم في سبيل الله، أو يأتوا عونًا وحمية، ولتكثير سواد المسلمين، فقال المنافقون: لو كنا نعلم أن هناك قتالًا لخرجنا نقاتل مع رسول الله ﷺ؛ فأخبر سبحانه بأنهم بهذا القول أصبحوا أقرب للكفر منهم للإيمان لأنهم كذبوا، وأنهم يقولون بأفواههم خلاف ما في قلوبهم، والله جل في علاه كاشف أمرهم لا تخفىٰ عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.

[١٦٨] ثم أخبر جل وعلا بما قاله الذين تخلّفوا عن القتال ورجعوا إلىٰ المدينة، في شأن الذين خرجوا وقُتِلُوا؛ حيث قالوا عن إخوانهم الذين استشهدوا: لو أنهم أطاعونا وقعدوا مثلنا لنجَوا من القتل كما نجونا؛ فقل لهم يانبي الله: إن كنتم صادقين فيما تقولون فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كان الحذر يمنع من الموت كما تزعمون.

[١٦٩] ثم قال سبحانه وتعالىٰ: ولا تظنوا أيها الناس أن الذين استشهدوا من أجل إعلاء كلمة الله أمواتٌ؛ بل أحياء بجوار ربهم حياةً خاصَّة.

وقوله: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾، تأكيد لحياتهم، وأنهم يتمتعون بثمار الجنة ونعيمها وتحفها.

[١٧٠] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الشهداء فرحون ومسرورون بما أتاهم الله من فضله، وهو رضوان الله والشهادة والنعيم الخالد، وأنهم فرحون بإخوانهم المجاهدين الذين تركوهم خلفهم في الدنيا، متمنين لهم الشهادة ليفوزوا بنعيم الجنة كما فازوا، وهؤلاء الشهداء لا خوف عليهم يوم القيامة مما يُرىٰ من أهوال ذلك اليوم، ولا هم يحزنون علىٰ ما فاتهم من نعيم الدنيا الفاني.

[١٧١] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الشهداء فرحون بما منّ الله به عليهم من نعمة الشهادة في سبيله، وبما منَّ عليهم من نعيم الجنة الدائم، ثم أخبر سبحانه بأنه لا يضيع أجر الشهداء المؤمنين الصادقين.

[١٧٢] ثم بين جل وعلا أن هذا النعيم وهذه الكرامة التي حصل عليها هؤلاء الشهداء؛ لأنهم استجابوا لدعوة الله ورسوله في استئناف الجهاد من بعد ما أصابهم من الهزيمة في غزوة أُحد، وبذلك أحسنوا واتقوا عصيان أمر الله ورسوله، فاستحقوا علىٰ جهادهم وتضحيتهم الأجر العظيم من الله تعالىٰ.

[١٧٣] ثم مدح جل وعلا المؤمنين علىٰ ثباتهم، ولم يلتفتوا إلىٰ ما قاله بعض المرجفين من أنصار المشركين؛ حيث إن أبا سفيان قد واعد رسول الله ﷺ أن يوافيه العام المقبل من يوم أحد ببدر الصغرىٰ للاقتتال؛ فلما كان العام المقبل خرج أبو سفيان مع قومه حتىٰ نزل بمر الظهران، فألقىٰ الله الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فلقي نُعيم بن مسعود الأشجعي وطلب منه أن يذهب إلىٰ المدينة لِيُجْبِنَ المؤمنين عن لقائه، فلما وصل نُعيم إلىٰ المدينة قال: أيها الناس إن قريشًا بقيادة أبي سفيان قد جمعوا الناس لقتالكم فخافوهم ولا تأتوهم؛ فازداد المؤمنون بذلك القول إيمانًا وثباتًا في دينهم ونصرة نبيهم، ولم يلتفتوا إلىٰ ما قال؛ بل قالوا: حسبنا الله سيكفينا أمرهم وشرهم، وهو سبحانه نعم الملجأ ونعم النصير، وهو حافظنا ومتولي أمرنا.

فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

[١٧٤] وبعد أن قالوا هذه الكلمة العظيمة -حسبنا الله ونعم الوكيل-؛ خرجوا مع رسول الله ﷺ للقاء العدو؛ لكنهم لم يلقوه؛ لأنه أسرع خائفًا إلىٰ مكة مخذولًا؛ ثم أن الصحابة رضي الله عنهم وافقوا السوق وكانت معهم بعض التجارات فباعوا واشتروا وربحوا، ثم رجعوا إلىٰ المدينة مع الرسول ﷺ، وقد فازوا بنعمة السلامة، وطاعة الله ورسوله، ولم يمسسهم سوء؛ حيث أنعم الله عليهم بفضله وكرمه العظيم ورضاه.

[١٧٥] ثم بين جل وعلا للمؤمنين أن أولئك الذين يخوفونكم لِتَجْبُنُوا عن لقاء عدوكم ليسوا إلا أعوانًا للشيطان الذي يخوف أتباعه فيجعلهم جُبناء، وأنتم لستم منهم؛ فلا تخافوهم وخافوا الله -وحده- إن كنتم صادقين في إيمانكم.

[١٧٦] ثم يسلي جلّ وعلا نبيه ﷺ ويقول له: لا تحزن يانبي الله علىٰ هؤلاء الذين يُصِرُّون علىٰ الجحود والضلال؛ فإنهم لن يضروا الله شيئًا؛ بل إن مضرتهم علىٰ أنفسهم، وأنهم هم الخاسرون، كما قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨]، فالرسول ﷺ يتألم ويحزنه مبادرتهم للكفر بعدما وَضَّح لهم ما ينجيهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة، واعلم أن الله لا يريد لهم ثوابًا وأجرًا في الآخرة؛ بل لهم عذاب شديد وأليم وفظيع.

[١٧٧] واعلموا أن هؤلاء المنافقين الذين استبدلوا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئًا بكفرهم وضلالهم، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم جزاء كفرهم وضلالهم.

[١٧٨] ثم يقول جل وعلا: ولا يظن هؤلاء المشركون أن إمهالنا لهم بطول العمر وسعة العيش والنعيم خير لهم، إنما إمهالنا لهم حتىٰ يستمروا في زيادة الإثم، ويستحقوا العذاب المهين في الآخرة؛ لأنها دار الجزاء الحقيقي الذي من شدته يتمنون الموت.

[١٧٩] ثم أخبر جل وعلا أنه ليس من شأنه أن يترك المؤمنين عامة علىٰ ما هم عليه؛ حتىٰ يتبين المؤمن الصادق من المنافق الكاذب؛ فالله جل شأنه وهو العالم بكل شيء، يريد أن يبين المندسين بين المسلمين، وهم المنافقون المخذِّلون الذين يبطنون الكفر والعداوة للمسلمين؛ لكي يفضحهم الله ويظهرهم ويبين حقيقتهم للمسلمين السَّماعين لهم، كما قال جل وعلا: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧]، ثم أخبر سبحانه أنه ليس من حكمته أن يُطلع عباده المؤمنين علىٰ الغيب وعلىٰ أسرار العباد؛ ولكن يميزهم بالابتلاءات والمحن فيظهر المؤمن من المنافق، إلا أنه سبحانه يختار رسله ممن يشاء من عباده فيطلعهم علىٰ بعض الغيب الذي استأثر به بوحي منه، ثم أمرهم سبحانه بالإيمان بالله ورسوله؛ لأن من آمن بالله ورسوله إيمانًا صادقًا مُخلصًا، واتقىٰ الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ فله من الله أعظم الأجور، وهو رضاه ودخول الجنة.

[١٨٠] ثم أخبر جل وعلا بسوء مصير الذين يبخلون بنعم الله ولا يؤدون زكاة أموالهم؛ فقال سبحانه: ولا يظن هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من الأموال ونعيم الدنيا هو خيرٌ لهم؛ بل هو في الحقيقة شرٌّ لهم؛ لأن الله سيجعل ما بخلوا به علىٰ شكل طوق من نار جنهم يُلف علىٰ أعناقهم، ويعذبون به، واعلموا أيها الناس بأنكم سوف تموتون، وأن الله وحده له ميراث السماوات والأرض، وهو الوارث لما في أيديكم، فلماذا تبخلون بما مَنَّ الله عليكم من نعمه وأفضاله؟، والله خبير ومطلع علىٰ أعمالكم، لا يخفىٰ عليه شيء. وهذا تهديد للذين يمنعون الحقوق ويجحدون فضل الله، وما أوجبه في أموالهم من زكاة وواجبات أخرىٰ، كالصلة والصدقات والإنفاق في سبيل الله؛ أما الذين يؤدون الحقوق والواجبات فكما قال ﷺ عنهم: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[1].

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧٧٦٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٩٩).

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ * لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

[١٨١] يخبر جل وعلا أنه سمع هذه المقولة الشنيعة التي قالها اليهود؛ حيث قالوها لمّا سمعوا قوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد:١١]، فقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء لأنه يطلب منّا أن نقرضه، تعالىٰ الله عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، وقد أخبر سبحانه في مواضع أخرىٰ من القرآن بجرأة هؤلاء اليهود علىٰ الذات المقدسة؛ فقد قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، وغير ذلك، والأغرب والأعجب هو صبر الله عليهم وإرجاء عقوبتهم للآخرة، فقال جل في علاه: سنكتب ونحفظ هذه المقولة التي قالوها مع أقوالهم وأفعالهم الأخرىٰ، مثل ما فعله أباؤهم من قتلهم الأنبياء بغير حق، ثم نحاسبهم ونعاقبهم علىٰ هذه الأقوال وهذه الأفعال، ونقول لهم علىٰ سبيل التهكم والاستهزاء: ذوقوا عذاب النار المحرقة التي كنتم بها تكذبون.

والله سبحانه ذكر أقوالهم في كتاب يُتلىٰ إلىٰ يوم القيامة؛ فضيحة لهم وتحذيرًا للمؤمنين من الثقة بهم، فنسأل الله السلامة من خبثهم وكيدهم.

[١٨٢] ثم بين جل وعلا أن هذا العذاب الشديد الذي كتبه علىٰ اليهود كان جزاءً لهم بسبب ما اقترفته أيديهم من الجرائم والمعاصي التي ارتكبوها في حياتهم الدنيا، ثم بين سبحانه بأنه لا يظلم الناس شيئًا فيعاقبهم بغير جرم البتة.

[١٨٣] ثم أخبر جل وعلا بما قال اليهود -عندما دعاهم الرسول ﷺ إلىٰ الإسلام-؛ فقالوا: إن الله أمرنا في التوراة أن لا نؤمن لرسول إلا إذا أتىٰ بدليل علىٰ صدقه بأن يأتينا بشيء يقربه لوجه الله، وتنزل نار من السماء فتأكله؛ فقل لهؤلاء يانبي الله: لقد جاءتكم رسل من قبل بالمعجزات الساطعة التي لا شك فيها وبالذي طلبتم، فَلِمَ كذبتموهم وقتلتموهم، إن كنتم صادقين بأنكم مؤمنون.

[١٨٤] ثم يسلي جل وعلا نبيه فيقول له: فإن كذبوك يانبي الله فلا تحزن؛ فلست وحدك من كُذِّب من الرسل؛ بل كُذِّبت من قبلك رسل كثيرون، جاءوا بمثل ما جئت به من الحجج والبراهين العقلية والنقلية، وجاءوا أقوامهم بالزُّبُرِ، وهي: الصحف والكتب السماوية التي زُبِرَتْ، أي: جَمَعَتْ الآيات والحجج البينات، وجاءهم الكتاب المنزل من عند ربك عليك وهو القرآن الكريم الذي فيه النور والهدىٰ والحِكَم الواضحة البينة.

[١٨٥] ثم أخبر جلّ وعلا أن كل نفس ستذوق الموت لا محالة، ويوم القيامة سوف يرجع جميع الخلق إلىٰ ربهم ليحاسبهم، وهناك توفَّون أجوركم علىٰ أعمالكم كاملة غير منقوصة؛ واعلموا أن من زحزح عن النار، ولم يسقط في نار جهم عند عبوره علىٰ الصراط؛ فقد ظفر بما كان يريد، وحصل له الفوز العظيم، وما الحياة الدنيا أيها الناس بكل ما فيها إلا متعة مؤقتة؛ سوف تذهب وتزول.

وهذا وعد للمصدق بما عند الله من ثواب الجنة، ووعيد للمكذب والمنافق بالعذاب الأليم في الآخرة.

[١٨٦] واعلموا أيها المؤمنون بأنكم سوف تُمتحنون في أموالكم بإخراج النفقات الواجبة والمستحبة، وبالكوارث والحوادث التي تصيبكم، وفي أنفسكم بالأمراض والموت، وسوف تسمعون من اليهود والنصارىٰ والمشركين ما يؤذيكم من السخرية والاستهزاء والطعن في دينكم ونبيكم، وألفاظ الكفر والشرك، وغير ذلك من الأذىٰ الكثير والكبير في كل الأزمنة والعصور، وإن تصبروا علىٰ ذلك بالثبات علىٰ دينكم، وتتقوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه؛ فإنه لا يضركم كيدهم شيئًا، وإن ذلك مما يجب عليكم أن تعزموا عليه وتنافسوا فيه.

وهذه الآية تأكيد أن الحياة الدنيا كلها ابتلاءات واختبارات؛ ليتميز المحسن من المسيء، والخبيث من الطيب، ووعد سبحانه المحسنين الصابرين بالنجاة والسلامة من كيد الكافرين والباغين، ومن المنافقين المندسين بين المؤمنين.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ
أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ
رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

[١٨٧] واذكر يانبي الله يوم أن أخذ الله العهد علىٰ اليهود والنصارىٰ بأن يبينوا للناس صفة النبي ﷺ في كتبهم وأن لا يخفوا من ذلك شيئًا، وأن يؤمنوا به وبما جاء به من الهدىٰ والحق، ولكنهم كتموه ونبذوه وراء ظهورهم ولم يلتفتوا إليه، واستبدلوا بذلك شيئًا حقيرًا من متاع الدنيا الفاني؛ فبئس هذا الشراء، وبئس هذا الثمن، وهذه الصفقة الدنيئة.

[١٨٨] ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ: ولا تَظُنَنَّ يانبي الله أن هؤلاء الذين يفرحون بما أَتَوا من أفعال سيئة، ويحبون أن يمدحهم الناس بما لم يفعلوا؛ فلا تظنَنَّهم بعيدين عن العذاب في الحياة الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب موجع مؤلم.

[١٨٩] واعلموا أيها الناس أن لله جل وعلا مُلْكُ وأَمْرُ السماوات والأرض وما فيهما، وأنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[١٩٠] واعلموا أيها الناس أن في خلق السماوات والأرض، وما فيهما من عجائب، واختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان، والضياء والظلام؛ لدلائل وحجج وبراهين ساطعة بينة لذوي العقول الراجحة السليمة.

[١٩١] ثم بين جل وعلا أن من صفات أصحاب العقول السلمية أنهم: يذكرون الله حال قيامهم وقعودهم وحال اضطجاعهم، أي: أنهم يذكرون الله في كل حال، ويُعْمِلُونَ عقولهم بالتفكير في خلق السماوات والأرض؛ ليستدلوا بها علىٰ قدرة الله سبحانه؛ وأمام هذه العظمة الإلهية يدعون ربهم قائلين: ربنا ما خلقت هذا الخلق الذي نشاهده عبثًا؛ بل دليلًا علىٰ كمال قدرتك وحكمتك، فتنزهت ذاتك وتقدست عن العبث وعن كل ما لا يليق بك، فنجنا ياربنا يوم القيامة من عذاب النار الأليم الذي لا يطاق.

وهذه الآيات من قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ...﴾، إلىٰ قوله: ... ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، روي أن النبي ﷺ قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**»[1].

[١٩٢] وبين سبحانه أن من دعاء أصحاب العقول السليمة قولهم: ياربنا إن من أمرت بإدخاله النار من عبادك بسبب ما اقترف من الذنوب والمعاصي؛ فقد أذللته وأهنته وفضحته، وليس للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي من أنصار يدفعون عنهم عذاب الله.

[١٩٣] وكان من دعائهم أيضًا قولهم: ياربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان، وهذا المنادي هو الرسول ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد أمرنا أن نؤمن بالله خالقنا ورازقنا، وأن نؤمن برسوله ﷺ، وأن نؤمن باليوم الآخر؛ فاستجبنا لكل ما أمرنا به ﷺ؛ فاستر لنا ياربنا عيوبنا، وامحُ عنّا ما سلف من سيئاتنا، وألْحِقْنَا بأهل الإيمان والصدق والصلاح الفائزين برضوان الله.

[١٩٤] ويستمرون في دعائهم قائلين: ياربنا أكرمنا وانجز لنا ما وعدتنا به علىٰ ألسنة رسلك من النصر والتمكين في الدنيا، ومن الفوز برضوانك وجنتك في الآخرة، فإنك سبحانك لا تخلف الميعاد.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠)، عن عائشة رضي الله عنها. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٨): حسن.

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟
وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سورة النساء

[١٩٥] ثم أخبر جلّ وعلا أنه استجاب لهم دعاءهم، وأخبر بأنه لا يُضَيِّعُ علىٰ عامل منهم ثواب عمله؛ سواء كان ذكرًا أم أنثىٰ، وهم سواء في قبول الأعمال والثواب عليها؛ ثم أخبر سبحانه بأن الذين هاجروا يريدون وجه الله وأخرجوا من ديارهم ونالهم الأذىٰ في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، وقُتل منهم من قُتل، سيمحو الله عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات تجرىٰ من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، جزاءً من عند الله، والله وحده عنده الأجر والثواب الحسن.

[١٩٦] ثم أمر جل وعلا رسوله ﷺ بأن لا يغتر بما يراه من نعيم مغدق علىٰ الكفار الجاحدين في الدنيا.

[١٩٧] واعلم يانبي الله أن نعيم الدنيا متاع قليل ثم يزول، ثم يكون مصير هؤلاء الكفار في الآخرة إلىٰ النار، وبئس الفراش الذي فرشوه لأنفسهم في جهنم.

والمقصود: أن يبلغ النبي ﷺ تابعيه أن إمداد الكفار بالنعم والمكاسب أمر وقتي، وأنهم سوف يحاسبون ويجازون بعذاب مستمر في النار لا يقاس أو يقارب ما أُعطوا من الرفاهية والمتع المحدودة الوقت في الدنيا.

[١٩٨] يخبر جلّ وعلا أن الذين خافوا ربهم واتبعوا دينه وسنة نبيه ﷺ لهم جنات تجري من تحت قصورها وبساتينها وأشجارها الأنهار، خالدين مخلدين فيها لا يخرجون منها أبدًا، وهذه الجنات هي منزلهم الدائم ثوابًا من عند الله، وما عند الله أفضل وأعظم لأهل الطاعات الصادقين.

وفي قوله: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، معلوم أن النُّزُل هو ما يُعَدُّ للضيف إكرامًا له، وليس جزاءً أو أجرة له علىٰ عمله، وقد قال ﷺ: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**»، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته**»(١).

وفي كثير من الآيات يقول تعالىٰ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، وفي مواضع أخرىٰ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة:٢٤].

وهذا لا يعارض الحديث والآية التي تنص علىٰ النُّزُل.

والتحقيق: أن دخول الجنة إنما يكون بسبب الأعمال الصالحة إذا قبلها الله برحمته؛ فصار ذلك العمل المقبول سببًا لدخوله الجنة.

والعمل الصالح المقبول هو ما تحقق فيه شرطان: الإخلاص لله، وموافقة ما جاءت به رسل الله، والذي تحقق فيه هذان الشرطان من العمل فإن صاحبهُ يتغمده الله برحمته فيقبل عمله ويدخله الجنة جزاءً علىٰ أعماله الصالحة، فإذا دخل الجنة أكرمه الله بالنُّزُل التي تعد للضيف إكرامًا له.

ومذهب أهل السنة: أن الباء في قوله: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله**»، هي باء العوض، مثل: اشتريت هذا القلم بريال، والباء في قوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، هي باء السببية، أي: بسبب أعمالكم الصالحة المقبولة.

وأظنُّ: أن هذا وذاك مرجعهما رَحْمَةُ الله بعد إخلاص العمل له، ومطابقته لسنة نبينا محمد ﷺ(٢).

[١٩٩] واعلموا أن من اليهود والنصارىٰ من يؤمن بالله، ويؤمن بنبوة محمد ﷺ؛ كعبدالله بن سلام والنجاشي وغيرهم، ويؤمنون بالقرآن والتوراة والإنجيل، متذللين لله وحده، ولم يبدلوا أو يكتموا ما أنزل الله في التوراة والإنجيل مقابل ثمن قليل من متاع الدنيا الفاني، ثم بين سبحانه بأن هؤلاء لهم ثواب أعمالهم كاملًا، واعلموا أن الله سريع الحساب، لا يحتاج إلىٰ وقت طويل في حساب خلقه.

[٢٠٠] ثم ختم جل وعلا هذه السورة بالنصح للمؤمنين؛ بأن يصبروا علىٰ الإيمان، وأن يصابروا أعداءهم علىٰ القتال وأهواله، وأن يجادلوهم بالتي هي أحسن، لأن المؤمن حياته كلها اختبارات وابتلاءات، فربما قابل مُشكِّكين ومكابرين من الكفار والمنافقين، الذين يطمع محبوهم بإيمانهم؛ فيكابروا ويجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وأمرهم بأن يرابطوا في الثغور وجهاد الأعداء، وأن يتقوا الله بالخوف منه في جميع الأحوال، ويكون ذلك باتباع أوامر الله ورسوله واجتناب نواهيه، وبهذا يكسبون الفلاح في الدنيا، والفوز برضوان الله وثوابه في الآخرة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٦)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: أضواء البيان للشنقيطي (٣/ ٣٤٩، ٣٥٤ - ٧/ ٥٢٦).